





مجانا مع جريدة السفير

# الربيع الروماني للسيدة ستون



## تينيسي وليامز

ترجمة أسامة منزلجي



الكتاب للجميع

١٤٥

# تينيسي وليامز

# الربيع الروماني للسيدة ستون

ترجمة أسامة منزلجي

طبعة خاصة
توزّع مجاناً مع جريدة (السفير)

دار المدى للثقافة والنشر

٢٠١٤



الكتاب للجميع

مجاناً مع جريدة السفير




■

**شركة السفير: ش.م.ل.**

**رئيس تحريرها: طلال سلمان**

**المدير العام: ياسر نعمة**

**مدير التحرير: ساطع نور الدين**

**المدير المسؤول: غاصب المختار**

■

التحرير والإدارة: شارع منيمنة / الحمراء/ بيروت
فاكس ٣٥٠٠٠٥ ـ ٧٤٣٦٠٢
ص.ب: ١١٣/٥٠١٥/الحمرا - بيرون ١١٠٣٢٠١٠
انترنت http: //www.assafir.com
Coordinator@assafir.com

- تمّت الطباعة في مطابع جريدة السفير
- تلفاكس ١/٢/٣/٤ ـ ٧٤٢٦-٩٦١+

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر





بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور
الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ - ٧٥٢٦١٧
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box : 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

تنيسي ويليامز

# الربيع الروماني
# للسيدة ستون

ترجمة أسامة منزلجي

# الجزء الأول

## شمسٌ باردة

عند الساعة الخامسة من بعد ظهر أحد أيام أواخر شهر آذار، كانت زُرقَة السماء الصافية فوق روما قد بدأت تبهتْ، وجمّعَتْ الشفافية الزرقاء، للشوارع الضيّقة كتلةً رقيقةً من البخار. وقِباب الكنائس العتيقة، المنتفخة فوق السقوف المُثلّثة، كأثداء نسوة عملاقة مضجعة، كانت لا تزال تستحمُّ في الضوء الذهبي، وكذا فَعَلَ ارتفاعُ ذلك الشلال الهائل من الدرج الحجري الهابط من ساحة ترينيتا دي مونتي إلى ساحة إسبانيا. وطوال النهار كانت نافورة الدَرَج الممتدّة بإعجازٍ قد جَذَبَتْ حشداً من الناس الجاثمين تحت الشمس ليس لديهم عملٌ منتظم أو انشغالُ مشروع، وبالتدريج، ومع انخفاض الشمس، ارتقى هذا الحشدُ المنبوذُ أعلى الدَرَج، كضحايا فيضانٍ يرتقونَ التلال مع ارتفاع ماء الفيض. والآن تجمّع من تبقّى منهم فوق أعلى الدَرَج ليستقبلوا وداعَ الشمس؛ كانوا يتلقّونه وسيماءٌ، من الوقار على وجوههم وأيديهم الساكنة،

لأنهم كانوا صامتين تماماً تقريباً، وأصبحوا الآن لا تكاد تندُّ، عنهم أي حركة. وأكثرهم حيويّة، كالصبية القذرين من باعة السجائر الأميركية الزائفة الذين، وجدوا في الدرج الإسباني مكاناً مناسباً يختفون فيه عن الأنظار ويظهرون كما يتطلّبُ الظرفُ. والمتسوّلون الأكثر نجاحاً الذين يحملون رُزَماً من الأوراق القذرة كانوا يعُدّونها سرّاً؛ كانوا قد أخذوا يهجرون الساحة الصغيرةَ الموجودة عند أعلى الدَرَج وانتقلوا إلى الشوارع التي ستؤدّي بهم إلى فيتا فينيتو حيث يحتشدُ السُيّاحُ الأميركيون في مثل تلك الساعة.

بين الجَمْع المنفرط في ساحة ترينيتا دي مونتي انتصبت قامة شابٍ بلا حراك كأنّه ينتظر أن يتلقّى إشارة ما من النوافذ العُليا من مصطبة نُزُلٍ ذي طرازٍ عتيقٍ يطوّقُ أعلى الدرجِ الإسباني. كان جماله مُقلياً للنظر حتّى في بلدٍ يُعتبرُ افتقاده في شَابٍ شيئاً شاذّاً؛ نوعاً من الجمال تُمجّده تماثيل الأجساد الذكريّة البطوليّة في نوافير روما. كان هناك شيئان يُخفيانه قليلاً؛ رثاثةُ ثيابه المريعة وهيئته المُختلسة. القطعة الوحيدة الأنيقة التي كان يرتديها هي سترةٌ سوداء صغيرة جدّاً بالنسبة إلى مقاسه، تكشفُ ياقتها المُثلّثةُ بشَرَةً عاجيّة البياض عارية؛ ولا دليل على وجود قميص. كانت حوافُ بنطاله مهترئةً، وبدتْ قدمان عاريتان من شقٍ هائلٍ في حذائه الجلديّ. بدا وكأنّه يريدُ أن يتهرّبَ من الانتباه الذي أثاره جماله، لأنّه كلما تلقّى نظرةً من أحدهم أشاحَ ببصره عنها. وأبقى رأسه مُنخفضاً وجسمه محنياً قليلاً إلى الأمام، ومع ذلك كانت تبدو عليه سِمة اليقظة. وقد دلّ توتُّر جسمه على أنّه كان طوال الوقت على شفا أن يرفعَ صوته أو ذراعه بما يُشبه النداء المُلّح أو التحيّة. لكنه كان قد

أمضى في مكانه ردحاً طويلاً من الزمن حتّى الآن ولم يتلقَّ أي إشارة ولم تحن بعد لحظة النداء أو التحتيّة؛ وظلّت مُراقبته اليقظة وتوتّره على أشدّهما، وحين ظهر للتوّ شخصان على المصطبة، فوق مستوى الساحة بخمس طبقات ارتفعتْ درجةُ انتباهِه. كانت المصطبة المكشوفة ما تزالُ تتلقّى أشعّة الشمس الغاربة وستظلُ تتلقّاها ربّما لخمس عشرة دقيقة أخرى بعد أن يتخلّى عنها الدَرَجُ الإسباني حتّى الغد. كان الشخصان على المصطبة العالية هما امرأتان ترتديان فراءً غامق اللون، وقد قُلِبتْ ياقتا معطفي الفراء على وجهيهما بحيث إنّهما من تلك المسافة في الأسفل أعطتا انطباعاً بأنّهما طائران عملاقان غريبان يطلّان من حافة هاوية. راقبهما الشابُ بقلق وكأنّهما طائران مفترسان، يتوقّع في أي لحظة أن ينقضّا عليه بسرعة ويختطفاهُ بمخالبهما. وبينما هو يراقبهما، ويترقّبُ حدوث أمرٍ ما كما يبدو، توتّر فمه بعدم ارتياح. وهو يخشى، سرّاً، أن يكشِفَ عن أمرٍ مُخجل، وزَحَفَتْ أصابعه الطويلة الباردة داخل معطفه الأسود وانضغطت على مركز جسمه الدافئ، المتألّم من الجوع منذ أيام وليالٍ عديدة مضتْ، ومنذ أن هبطَ من قوقعة بلدةٍ قابعةٍ بين تلّال جنوب روما، وكان متأكّداً أيضاً من أنه سينام معه مرّة أخرى. وبينما هو يُعاني هذا انتبه، من دون أن ينظر إلى وجود سائح أميركي واقفٍ على مسافةٍ قصيرةٍ منه، تحت مسلّة مصرية بدا أنّ الرجل كان يتفحّصُ المنحوتات الوثنية المبهمة المنقوشة عليها. لكنّ الشابَ عَرِفَ أنّ اليدَ المدسوسة في الجيب كانت على وشك أن تُخرِج علبة سجائر وأنّه سيقدّمُ له واحدة. إذا قبلها فإنّ ذلك سيعني أنّه سيدخّن غيرها كثيراً ليطردَ الجوعَ وكل إزعاجٍ آخر لأيّام تالية. وثمّنتْ عيناه، وما تزالان لا تبادلان نظرات الشخص الغريبِ، قيمة الكاميرا المُعلّقة

من الشريط الجليد المُدلّى من كتفه والسوار الذهبي من رسغِه وحتّى القياس التقريبي لقيمصه وحذائه. ولكن حين فعلَ السائحُ الأميركي كما توقّعَ منه تماماً هزّ رأسه بجفاف وتحرّكَ مبتعداً بضعة أقدام ومن ثم عاود تحديقه الثابت إلى ارتفاع النُزُل العتيق: لأنّه حين يكونُ رجلٌ على موعدٍ مع شخصيةٍ فخمةٍ فإنّه لا يجرؤ على الركون إلى الراحة...

***

كانت السيدة ستون تتمتّعُ بفخامةٍ خاصّةٍ حلّت محلّ جمالها السابق. وقد أدركت مؤخّراً أنّ جمالها قد ضاع وكانت ما تزال تنسى ذلك أحياناً وهي بصحبة إيطاليين لم يروها أبداً خلافاً لما هي عليه الآن، إلى جانب أنّهم كانوا يتمتّعون بموهبة مُراءاةٍ من نوعٍ رحيم. غير أنّ السيدة ستون كانت تتجنّبُ غريزياً الاتصال بنساء كانت تعرفهنّ في أميركا، تميلُ عيونهنّ، إنّ لم نقل ألسنتهن، إلى الصراحة المزعجة. ورفيقتها الحاليّة الجالسة على مصطبة شقّتها تعرّفت إليها في عهد طفولتها ولم ترها منذ ذلك الحين إلا قليلاً. في ذلك الصباح التقت بها مصادفةً في قسم صرفِ العملة من الأميركان إكسبريس. وفي مثل تلك المقابلات كان لدى السيدة ستون عبارةٌ مبتذلة تستخدمها للتهرّب. ما أروع أن أراكِ، لكنّي الآن في طريقي إلى المطار! والطرف الآخر قد يُصدّقها أو لا يصدّقها، وهذا لا يهمّ، المهمّ أنّه يُحرّرها بالسرعة القصوى. ولكن في صباح ذلك اليوم خَذَلتها العبارة؛ كان سلوك المرأة الأخرى عدوانياً بشكل طاغٍ، واخترقت مباشرةً خطوط دفاع السيدة ستون التي شُلّت لبرهةٍ من الزمن. ربّما كان الاستسلامُ طوعاً جزئياً، لأنّه كان صحيحاً أنّ السيدة ستون شعرتْ مؤخّراً،

وكادت تعترف بذلك لنفسها، بحاجتها إلى مناقشة أمورٍ معيّنة في حياتها مع شخصٍ عرفته حقّ المعرفة في الماضي. فثمّة فترات تغدو فيها الحياة مُلبّدةً بسحابةٍ من إحساسٍ باللاواقعية، حين يضيعُ التحديدُ، وتتخلّى الإرادةُ الواعيةُ أو ما كان يحلُّ محلّها قبلاً، عن سيطرتها، أو عن ادّعائها بها. في مثل تلك الأوقات يكون هناك حسٌّ بالانجراف، إنْ لم نقل بالغرق، في كون من الفيوض أو الأبخرة العنيفة الهائجة. هذا هو الحال الذي وعته السيدة ستون مؤخّراً، وفكّرت في أنّه قد يُلملمُ الأمور أو على الأقلّ يوضّحها قليلاً فيما لو باحت بها، ربّما بطريقٍ غير مباشرة، لامرأة من بلدها كانت تربطها بها ذات مرّة صلات حميمة جدّاً. لذا قالت لميغ بيشوب، نعم تعالي إلى شقتي بعد ظهر هذا اليوم لنتبادل الأحاديث، لديّ الكثير لأتحدّث فيه معك. ولكن بعد ذلك بوقتٍ قصير انتابَ السيدة ستون خوفٌ من بوحها الوشيك؛ وكأنّها وافقت على الخضوع لعملية جراحيةٍ قد تكون قاتلة، وفي اللحظة الأخيرة فقدت شجاعتها على الاستسلام لها. فقُبيل حلول موعد وصول ميغ بيشوب إلى شقّتها دعت السيدة ستون أناساً آخرين وملأت الشقّة بالمعارف الجدد الذين كانت تستخدمهم كدرعٍ واقٍ ضدّ الماضي. كانت تأملُ في ألاّ تتوفّر فرصة لنشوء حديث خصوصيّ، لكن ميغ بيشوب لم تكن من النوع الذي يسهلُ التخلّص منه. لقد صمّمت على أن تسمع ذلك الحديث الذي أصبحت السيدة ستون مُتلهّفة إلى تجنّبه. ومرةً أخرى أثبتتْ خطوط دفاع السيدة ستون عدم فاعليتها أمامَ الهجوم المباشر للطرف الآخر.

كانت ميغ بيشوب صحفيّة كتبت سلسلةً من الكتب تحت

عنوان شامل هو "ميغ ترى"، تتناول جميعها أحداثاً مفاجئةً عنيفةً وقعت في العالم المعاصر تتراوح تاريخياً من الحرب الأهليّة الإسبانية إلى حرب العصابات الحاليّة في اليونان. وقد عملتْ عشرُ سنين من الاتصال بذوي المراتب الحاليّة والرؤوس السياسية الكبيرة على طمس أي أثر للأنوثة في صوتها وسلوكها. ولسوء الحظّ أنّها لم تختر ارتداء الثباب الأنيقة التي كانت ستتلاءم وصوتها الهادر، القاطع، ومظهرها العسكري، النشط. فمعطف الفرو الذي كانت ترتديه الجديرُ بملكة، واللآلئ وثوب المساء الحريري من تحته، أضفتْ عليها مظهراً صاعقاً بأنّها ترتدي ثياباً ليستْ لها، وكأنّ آمراً ضخم الجثة لسفينة مدفعية يتخفّى بثياب سيّدة ثرية مولعة بارتياد النوادي. ولا شكّ في أنّها لم تكن تتمتّع بالرقّة التي شعرت السيدة ستون بحاجة إليها. كانت هناك رؤية عميقة، وكان هناك تحليلٌ حاذقٌ، لكنّ تلك الأشياء بالذات هي ما أرادت السيدة ستون بقوّة أن تتفاداها في ذلك الحين. لقد حاولت أن تُبقي ضيفتها الأميركية مشغولة مع الإيطاليين، ولكن لم يحدث بينهم انسجام. وأعلنت الآنسة بيشوب بصراحة أنّها لا تحبُّ حتّى مظهر هؤلاء الناس، واقتصرت تحيّاتها على سلسلة من الهمهمات التي لا تكادُ تسمعُ، بينما كانت السيدة ستون تنقلها من مجموعةٍ صغيرةٍ إلى أخرى، وارتكبت السيدة ستون حتّى إنّها لم تتذكّر أسماء ضيوفها وخلطت بين ألقابهم، وبينما هي تترنّح بين تعريف الناس بعضهم ببعض. بقدر ما كانت تخاف حتّى الرعب من أن تبقى وحدها مع ميغ بيشوب، كانت أضعفَ من أن تقاوم الذراع التي دفعتها بقوة إلى الشرفة حيث لا يوجدُ من يقطع حديثهما.

حالما خطت إلى الخارج ادّعت السيدة ستون أنّ الهواء قارصٌ بشكلٍ مزعج لكنّ الآنسة بيشوب واجهت تلك الخطة بإصرارها على أن ترتدي كلّ منها معطفها. وألحّت قائلة لها يجب أن أتكلّم معك، وهذا مستحيلٌ في الداخل. وهكذا ارتدتا معطفي الفراء وعادتا إلى الخارج. قَلَبَت السيدة ستون ياقة الفراء إلى أعلى حتّى وجنتيها، ولكن وسط ذلك الظلّ الذي لم يَزِدْ من حُسنها بدا وجهها الخائفُ الهرمُ أشبه بوجه صقرٍ يستعدُّ لشنّ هجومٍ يرسلُ نظراته الشذراء من على حافة جرفٍ وسط عاصفة. وجدتً نفسها تعاملُ ميغ بيشوب وكأنّها تعرّفت إليها حديثاً. وتلبَّسَتْ مظهراً اجتماعياً فخماً وراحتْ تتكلّم بسرعةٍ قدر استطاعتها بنبرة صوتٍ متوترة مصطنعة، مشيرةً إلى هذه الجهة وتلك من بقاعٍ مختلفةٍ من المشهد الروماني العام، الذي يرى كله من فوق سطحِ النُزُل. لكنّ ميغ بيشوب أجابت بزمجرات شكّاكة وكأنّها ترتابُ في كلّ كلمةٍ تتفوّه بها السيدة ستون. وعلى الفور قبضت على يد السيدة ستون التي كانت تشير إلى إحدى تلال روما السبع وقالت لها، والآن كفانا من هذا! وفي الوقت نفسه أحاطتْ خصر السيدة ستون بذراعها. أيقظَ ضغطُ تلك الذراع في السيدة ستون ذكرى كريهة من طفولتها البعيدة حين كانتا تتشاركان معاً سريراً واحداً في قاعةٍ للنوم في إحدى مدارس ولاية شرقية. في الليالي القارسة كانتا تتعانقان طلباً للدفء وفي إحدى المرات وقعت حادثة صغيرة فاشلة كشفت عن عنصر أقلّ براءة في علاقتهما الحميمة. كان شيئاً بشعاً جدّاً ثم أصبح بعد ذلك مُربكاً، ولعلّ هذا يفسِّر لماذا لم تعد ستون بعد ذلك بارتياح تامّ وهي بصحبة هذه الصديقة القديمة، مع أنّهما كلّما تقابلتا تشعر باضطرارها إلى أن تُظهر لها ما تستطيع من

حرارة المودّة وتكلِّمها وتفكّر فيها باعتبارها "أعزّ أصدقائي الحميمين" دائماً.

هتفتْ ميغ "هل تسميعن ما أقول؟"

أومأتْ السيدة ستون مع أنّها لم تكن تصغي حقّاً. كانت تنظر عبر زجاج الباب إلى زوجِ شابين يرقصان في وضعٍ يكادُ ساكناً ولا تفصلُ بين جسديهما أيّ مسافة، والآن شعرا بنظرتها، فتباعدا خجلاً وأومأتْ السيدة ستون للشاب، ويبدو أنّه تجاهلها. أشعل سيجارةً للفتاة ثم أدارا ظهريهما للباب.

كانت ميغ تقول "لا أحد يعرفُ لماذا فعلتِ ذلك!"

"فعلتُ ماذا؟"

"خرجت من الحفلة!"

"لقد سئمتُ منها"

"يمكنكِ أن تتخلّي عن العمل لكنك لا تستطيعين أن تتخلّى عن الفن".

"بل يمكن"، قالت السيدة ستون "حين تكتشفين في نهاية الأمر أنّك لا تملكين الموهبة لممارسته".

قالت ميغ "الموهبة؟ وما الموهبة إلا القدرةَ على الإفلات من عقابِ ذنبٍ ما؟ وأنت أدّيت أدواراً مؤثّرة صعبة. طبعاً لقد ارتكبت خطأً بقيامك بدور جولييت وأنت في عمر السيدة ألفنغ. هو ـ هو! هذا هو الخطأ! كان من المفترض من كلّ ذلك الساتان الأبيض واللآلئ أن يخلقَ جوّاً من العُذريّة لكنّ الإيهام لم ينجح. حين عَزَفَتْ آلات الكمان وأتى ذلك العزيز الصغير روميو يسعى كالحيّة تحت شرفتك شعرت برغبةٍ في الصراخ في وجهه قائلةً، انتبه أيّها

العصفور الصغير ستختطفك بين مخالبها وتمزّقك إرباً!

"أتعنين أنّي أبدو كصقر؟"

"كلا، بل كنسرٍ مَهيب

قالتْ السيدة ستون "لعلّ هذا يفسّرُ سبب فشلي في أداء الدور...".

في تلك اللحظة خرج الشاب الذي كان يرقصُ خلفَ زجاج الأبواب إلى الشرفة استجابة إلى إشارة عاجلةٍ من السيدة ستون، لكنّه لم يمكث إلا برهة. وواجه الشمس بتكشيرٍ هزليّ مشمئزٍ واستدار من فوره عائداً إلى الباب الزجاجي.

نادته السيدة ستون باسمه، وكان باولو، وتحرّكت بسرعة نحوه، لكنه لم يجب.

أعلن "أكره الشمس الباردة؛ لا أحبّها حين تخلو من الحرارة"

هذه الملاحظة من الشاب تركت أثراً مؤلماً في السيدة ستون لم يُفلت من انتباه المرأة التي كانت تقبضُ على ذراعها.

قالت ميغ "أليس غريباً كيف تبدأ النسوةُ في أعمارنا بالبحث فجأةً عن الجمال في شريكنا الذكر؟ لقد تزوجت وبدا ظاهرياً أنّكِ مولهةٌ برجلٍ ضئيلٍ بدينٍ أشبه بأرنب عيد الفصح. بل إنّي أذكر أن أحدهم قالَ، في ذلكَ الوقت، يبدو أنّ كارين ستون تزوجتْ لتتفادى ممارسة الجنس أمّا الآن".

قالت السيدة ستون بحدّة "لقد أحببتُ تون ستون حبّاً جمّاً".

"لعلّ هذا صحيح؛ ولكن لم يكن يملك الحقّ في إبعادك عن الأنظار ومن ثم يقعُ ميتاً بعدها بشهرٍ أو شهرين من دون أن يترك لك إلا بضعة ملايين قذرة تعتمدين عليها".

قالت السيدة ستون "لقد اعتمدت، على أشياء كثيرة غير ذلك"

"على ماذا، مثلاً؟"

"على هذا البلد؛ هؤلاء الناس..."

"إن كنت تقصدين تلك الحفنة من الساحرات والمخنّثين المدلّلين الذين جمعتهم هناك، فكلّ ما يسعني أن أفعله هو أن أضحك بأدبٍ في وجهك! صحيحٌ أنّهم يتحلّون بشيء من الرهافة، والشبّانُ منهم ذوو حُسنٍ وقد قيل لي إنّهم يمارسون الجنس بشكلٍ رائع، ولكن هل يكفي أن نطلبَ هذا من المجتمع الإنساني؟"

قالت السيدة ستون "أعتقدُ ذلك"

قالت ميغ "إنها الهروبيّة!"، وكانت تلك كلمتها المفضّلة؛ كانت عبارة اتّهام ترمي بها كلّ نواحي الضعف الخُلُقي والعقلي في العالم وتشعر أنّ عليها أن تقوّمها. وببطء وأمام عينيها، وكجراثيم ممرِضة مستنبَتَة تحت عدسة المجهر، بدأت ظاهرة السيدة ستون تتّخذ مظهر ومعنى الرمز. لم تنظر إليها كامرأة واحدة تعيشُ حياة فراغ وثراء، وكانت قبل ذلك ممثلةً لكنّها تخلّت عن خشبة المسرح ربّما بسبب فشلها في أداء دور شخصيةٍ أصغر منها سنّاً بكثير، بل كعنصرٍ أساسي لمجتمع وعصر تخبّط في الظلام حتّى حلّ به الفناء. لم تشعر بالشفقة. اعتبرت الشفقة غمامةً تتشكّل على عدسة العين المُحلّلة، وسرّها وهي واقفةٌ على هذه الشرفة الرومانيّة الطراز أن تشعر أنّها تمثّلُ امتداداً مُصغّراً للشرّ الكامن من التاريخ الحديث كلّه، لأنّ عتق المدينة الذهبي المنهار أسفلها، ووجه المرأة الهرم الخائف الجالسة إلى جانبها نطقا الكلمة الشنيعة نفسها أمام الآنسة بيشوب، وتلك الكلمة هي الانحلال.

كانت تقول "أظنُ أنّك لست صادقة. ولكن حتّى لو كنت

كذلك، حتّى لو كنت تملكين من الطاقة أكثر من الموهبة، فماذا تنوين أن تفعلي بتلك الطاقة الآن؟ هل ستضعينها في جيبك مثل مفتاح منزل لم تعودي تقطنين فيه؟ لا يمكنُ للطاقة أن توضع إلاّ في موضع العمل، ولا أعني بالعمل العلاقة الجنسية غير الشرعية! نعم، أنوي أن أسمّي الأشياء بأسمائها! وأنتِ ستصغين إليّ. إنهم يعطونك جرعات ضدّ التيفوئيد قبل أن تطأ قدماك السفينة ميري كوين، فحُبّاً بالله خذي جرعة بسيطة من الحقيقة من شخص يهتم بك بحيث يهبها لك! إنّني مصعوقة بك يا كارين؛ مصعوقةٌ ومُشمئزّة مما تفعلين بنفسك، ولست أول من شعر بهذا! إذا ظننت إنّكِ أفلتّ من الملاحظة هنا أو تجنّبتِ التعليق، فدعيني أريحك من سوء فهمك هذا! لقد دار قدرٌ كبير من الكلام، وتلميحات ساخرة مكبوتة في كلّ وسط من نيويورك، ولندن وباريس! لم يعدُ في إمكانك الإفلات من انتباه الرأي العام إلاّ بقدر ما تستطعين الإفلات من جلدك. دعيني أقول لك إنّ شخصية المرأة متوسطة العمر المبتذلة المفتونة بجنون بشابٍ صغير وجميل، بل في الحقيقة بسلسلةٍ من الفتيان ذوي الجمال الفتّان من القوّادين والزعران المحترفين، التي تلجأ إلى التبرُّج ولكن لا يُخفيها اللقبُ، الزائفُ، هي -"

هتفت السيدة ستون "انتظري!"، وانتزعت نفسها من ذراع الآنسة بيشوب التي تحيط بها وحاولت أن تتحرّر منها، لكنّ الذراع اشتدّت قبضتها وتابع الصوتُ:

"كلا، ستسمعينني! اعتقدُ أنّك لن توليني أي انتباه، لكنك ستسمعينني! لقد أتيتُ إلى هنا فقط لأقول لك هذا الكلام. إنّ الناس يعلمون ما تفعلين. لا أحد منهم عرفك قط، وطبعاً لم

يحبّك أحد منهم، لم ـ"

هتفت السيدة ستون "من هؤلاء الذين لم يحبوني قط؟ هلاّ ذكرت لي بعضهم؟"

"هناك آلافُ منهم. أنتِ مثّلتِ ـ"

"تقصدين أنّي مثّلت أدواراً مختلفةً! ولكنّي أكن نفسي أبداًا!"

"هل أنت نفسك؟"

"ماذا؟"

"هذا المرأة ـ تيبريوس ـ التي يبدو أنّك تمثّلين دورها الآن..."

فُتح البابُ الزجاجي وكأنّ ريحاً هبّت عليهما من الداخل.

انسابتْ السيدة ستون بين ضيوفها وكأنّها تبعدُ جانباً أثواباً مختلفة بحثاً عن ثوبٍ معيّن داخل خزانة. حين وصلت إلى الباب المؤدّي إلى غرفة نومها لمس أحدهم كتفها، ومن دون أن تلتفت ضربت اليد المكبوحة، وربّما تركت عليها آثاراً من أظافرها. ومن ثم فتح الباب، ومن ثم صفع بقوّة. وخفّت قليلاً وطأةُ الأصوات، وموسيقى آلة الفيكترولا، والقرقعة البعيدة لدولاب الروليت وحفيف أقدام الراقصين. وأصبحت أقلّ ضجيجاً من صوت الصنبور الذي يصبُّ الماء في حوض الحمام. رشقت الماء الفاتر على وجهها، وشهقت، لكنّ كلّ تعبيرات المشاعر العنيفة تلك لم يبدُ أنّ لها علاقةً بأي شيء مما يدور في رأسها. ساد رأسها هدوء رائعٌ وكأنّ طائراً وحشياً كان محبوساً داخله وقد طار خارجاً منه الآن من خلال فتحةٍ ما خفيّة. كلاّ، لا داعي لأخذ المُسكِّن الذي امتدّت يدها إليه دون قصد؛ ورأت الوجه يحدّق إليها، بشيء من الفضول بشيءٍ من القلق، وبينما هي تنظر إليه ومض بريقٌ أمام

الوجه وكأنّها أدهشته بفعل أمرٍ أخجله...

إنّه الانجراف!

إنّ ولوج غرفةٍ ومن ثم الاندفاع إلى خارجها من دون وجود أي سببٍ حقيقي لدخولها، أو للخروج منها، هذا هو الانجراف. الانجراف هو كلّ ما تقوم به من دون أي سبب. ولكن أين يوجد سببٌ لأي شيء مهما كان؟ آه، يمكنك خلق سببٍ، وبعضها يكون معقولاً. بعضها يكون معقولاً بحيث يمكن قبوله كما يقبل العذر المُهذّب باعتباره حلاًّ ملائماً أو سياسةً اجتماعيّة. لكنها لا تلمحُ في الأفق أي سبب. منذ زمن بعيد، بعيد، وذلك العدم مسيطر وقد بدأ حين انفرط عقد اللآلئ، وحين غرزت أظافرها في اليد التي حاولت أن توقفها ومن ثم انطلقت خارجةً لتتابع عمل التدمير على خشبة المسرح المغمورة بضوءٍ أزرق خافت جدّاً كأنّه مغلّف بمنديلٍ ورقي تغرز فيه مخالب طائر مقيّد. منذ زمن بعيد، كافٍ لكي لا تتذكّر. ماذا كان اسم الرجل القميء البدين الذي كان يعيش معها؟ تمنّت من كلّ قلبها لو أنّها لا تعود تتذكّر. وكلّ ذلك الزمن، ماذا أفادها؟ لا صلة له بأي شيءٍ موجود الآن. أو هو، أو أيّ شيء. كان شيئاً انتهى بما يشبه الخدعة، بما يشبه اللعبة السحريّة، المسرحية جعلته يستمرّ حتّى بعد أن توقّف. نعم، توقّف. توقّف. كلمة تُحاكي نهاية عمل. شيء يُرمى على جدار فيرتطم محدثاً صوتاً رطباً، ويسقط هناك. أمّا هي فلم تتوقّف، لأنّها تابعت انجرافها. كانت تحملُ كأساً في يدها، كأساً من الماء الفاتر، كانت ترشفُ منه، لكنّها لم تتوقّف في مكانها. كانت توشك أن تنجرف، وهي الآن خارج الحمّام، والآن هي في غرفة النوم، والآن خرجت من غرفة النوم إلى الشرفة ثم هي تنظر إلى

أسفل الآن. اختفى الضوء. كانت أمسيةً رائعةً؛ مُغلّفةً بمنديلٍ ورقيّ أزرق. ولكن هناك في الأسفل كان الشاب ما يزال في مكانه، تحت المسلّة الحجرية المجلوبة من مصر، بجماله الخلّاب والذي كان بالأمس قد أرسل لها إشارةً فاسقة. كان في الأسفل، ينتظر...

أدارتْ ظهرها له، وهي ترتعش تقزّزاً...

لا صوت. رحل الجميع. لم يبقَ إلاّ أن تنجرف بين الغرف الخاوية.

***

قالت الآنسة بيشوب بينما السيدة ستون تهربُ منها، مجتازةً باب الزجاج المفتوح، باتجاه غرفة النوم "فليرحمك الله". لم تتبعها؛ تركتها تغادر، لأنّها حقّقت ما جاءت لأجله؛ سدّدت إلى جسد السيدة ستون طعنة نجلاء. كان ذلك ثأراً لحدث وقع قبل زمن بعيد وقد رضيت بعملها. لكنّها أحسّت برعشة. شعرت بهزّة عميقة، لسببٍ غامض لم تسبر غوره، وفقدت أعصابها بفعل المتابعة مثلما شعرت السيدة ستون. صفاء الذهن ذاك الذي تباهت به اضطرب برهةً وغشته غمامة، وكأنّ وحشاً بحرياً ظهر من أعماق بحر عويص دون أن يشقّ سطح الماء كثيراً وإنّما هزّة فقط بتأثيرٍ من حركة في أسفله. نفرت منه مبتعدة. لم تكن بارعة في التحليل كما توقّعت؛ لم تكن شجاعة كما ظنّت؛ كان فهمها مقتصراً على كمٍّ هائلٍ من المبادئ الجامدة لنوازع جماعيّة ظنّت أنّها تشكّل ما تسمّيه الحياة لأنّه لا توجد كلمة أطول منها وأشدُّ تأثيراً. وفي غمرة انزعاجها انعطفت عند زاوية الشرفة فألفت نفسها واقفة خارج بابين زجاجيين آخرين. شاهدت عبرهما السيدة ستون تدخل غرفة نومها؛ شاهدتها تصفعُ باباً ثم تغلقه وتوصده ومن ثم

ترمي لفاعها الفرو إلى الأرض وتعجّلُ بولوج الحمّام. وضعت الآنسة بيشوب يدها على مقبض الباب الزجاجي لكنّه لم ينفتح؛ كان موصداً من الداخل. قرعت الباب وهزّته لكنها لم تتلقَّ جواباً. سمعت جزرياناً خافتاً لماء صنبور. بعد قليل عادت لتنعطف حول زاوية الشرفة. أطلّت منها إلى أسفل، بشرود، إلى عمق الساحة الصغيرة. كانت البقية الباقية من أشعة الشمس ما تزال تلامس المنحوتات الوثنية على حجر المسلّة الباهت الوردي، وأسفله مباشرةً وقف شابٌ ذو جمالٍ أخّاذ، وظهره إلى المسلّة، وكأنّه على وشك أن يلقي محاضرةً منها. خُيّل إليها أنّه ينظر إلى وجهها مباشرةً، وفي الحقيقة بدا كأنّه يوشك أن ينادي عليها أو يلوّح لها بذراعه محيّياً. لكنّ الآنسة بيشوب اكتفت بإلقاء نظرةٍ سريعةٍ عليه عابرة. ولم توله انتباهاً حقيقياً إلاّ بعد مرور بضع لحظات حين لاحظت فجأةً أنّه ابتعد عن المسلّة وأصبح يقفُ مباشرةً تحت الجزء من الدرابزين الذي تميلُ عليه. حين أخرج يديه من جيبيه وقرّبهما من نقطة التقاء فخذيه أدركت أنّه ينوي أن يتبوّل عند الحائط. ارتدّت إلى الخلف بفعل صدمةٍ خفيفةٍ وردّة فعل مفاجئة، تراجعت عن الدرابزين وعادت إلى داخل الشقة. كان عقد الحفلة قد بدأ ينفرط الآن؛ فالموسيقى سكتت، ومجموعة "العجائز المهيبات والمخنّثين المدلّلين" يمشون بخطى ملتفّة باتجاه الرواق ذي الطراز الباروكي حيث كان ينتظرهم مصعد أشبه بالصندوق المُجلّل بالمخمل الأحمر الموجود في دار الأوبرا لينقلهم إلى الخارج. لم ينظر أحد منهم إلى ميغ بيشوب وهي تنقّل نظراتها بحركة محمومةٍ حول المكان بحثاً عن السيدة ستون، ولم ترها في أي مكان. لقد لزمت معتزلها بينما عقد الحفلة ينفرط.

تلكّأت الآنسة بيشوب. امتلأ المصعد وهبط. تكتّل الضيوف الباقون في الرواق في انتظار رجوعه. كانت الآنسة بيشوب ما تزال موجودةً في الصالة. انتقلت إلى رفّ الموقد، وقد لفت انتباهها ساعة منبّة فرنسية داخل صندوقٍ زجاجيّ. من تحت الصندوق الزجاجي نتأتْ قُصاصةُ ورقٍ أحمر أرجواني سحبتها الآنسة بيشوب بشرود. واكتشفت أنّها تحوي صورة قناع، وحين قَلَبَتها رأتْ الآنسة بيشوب أنّها مكتوب عليها رسالة قصيرة جدّاً تقول: "هكذا أبدو الآن!". قولٌ غريب، ولكن لعلّ هناك تفسيراً لمعناها على ورقة الرسالة. التقطت ورقة الرسالة الحمراء الأرجوانية، ولكن في تلك اللحظة لَمَسَ أحدهم مِرفقها. ماذا؟ آه، نعم، المصعد! وهكذا اضطّرت إلى تركها...

***

كان باولو يذهب بعد ظهر كل يوم في الخامسة والنصف إلى حلاّقٍ للرجال والنساء في الجزء الأقصى من فيا فينيتو. كان حلاّقه هذا شاباً يدعى ريناتو ولا يكبر باولو في السن ويماثله في الوسامة ولا يقلُّ عنه في الأناقة إلاّ قليلاً. ولعلّ باولو لم يكن يدرك أنّ هذا هو أسعد وقت يقضيه خلال يومه؛ الوقت الذي أحياناً يتجاوزُ الساعة، يسترخي فيه على كرسي الحلاّق مستسلماً لأصابع ريناتو المُهدّئة، المتأمّلة. كان الشعورُ الحسّي الذي تمنحه تلك الساعة من الزمن مرهفاً كمذاق عسل الآلهة. وكانت أصابع ريناتو طويلة باردةً ونظيفة كماء يتدفّق من صنبور فضيّ؛ وعيناه داكنتين وغامضتين مثل عينيّ باولو، وصوته يُداعبُ السمع. ويكون حديث بعد ظهر كل يوم عبارة عن تتمّة لحديث اليوم الفائت؛ يبدأ دون مشقّة من حيث تركه الآخر من دون مشقّة

أيضاً، ويدور دائماً حول نسائهما. وكان باولو هو مثال ريناتو في الأناقة وعالم الموضة. وباولو، الكاثوليكي السيئ، لم يكن يذهب ليعترف بل يتوجّه إلى ريناتو لهدفٍ مشابه، ليُضفي جزءاً يسيراً من الأهمية على وجوده المتنقّل. أحياناً كانت أصابع ريناتو الطويلة، الباردة، تتلكّأ بضع دقائق، من دون أن تنمّ عن أي حركة، على وجنتي باولو الرقيقتين، بينما لسانُ الزبون وعظام فكّيه من تحتها تصنع ببطءٍ وسهولة حديثة الرخيّ. كان الكسلُ والشعورُ الحسّيّ ينهمران بينهما كامتزاج جدولين صافيين رقراقين تحت ظلال الصفصاف. كان الكرسي يدور دائماً بزاوية معيّنة بحيث يتمكّنان معاً من مشاهدة استعراض الأناقة المارّ على الرصيف في تلك الساعة حين يخرج الرومانيون في نزهتهم. كانت عادة التمشّي قرابة ساعة الغروب، التي يستسلم لها الأميركيون بسهولة، مُحبّبة، ويستطيع المرء من محل الحلاقة أن يرى، في تلك الساعة، كلّ شخص بالتحديد، ممّن ينسبهم باولو إلى عالم الثراء وإهمال الأناقة. يمكن له أن يراهم من خلال الواجهات والباب المستور بسلاسل رقيقة، ومرنة جدّاً من المعدن الفضيّ الباهت تقرقع برنين موسيقى لدى المرور عبرها. تلك الوصلات المعدنية حلّت محل الباب الزجاجي الذي كان هناك في فصل الشتاء. لقد مضى على رحيل فصل الشتاء وقت طويل الآن، والستارة المعدنية الخفيفة تسمحُ بدخول الهواء، الذي أصبح الآن يميل إلى الحرارة مع اقتراب فصل الصيف، ونتفٍ من حديث الرصيف. كانت التسليةُ البصريةُ مستمرّة، بحيث إن جفني العينين المتكاسلين كانا يرفرفان وينغلقان دونها، كما تتردّد اليدُ وسط مداعبةٍ مُبهجةٍ مداعبة مبهجة للحواس جداً خوفاً من أن

تصل إلى ذروة اللذّة، إذا استمرّت، بسرعة كبيرة.

والآن وقد أخذت أصابعُ ريناتو الطويلة، الباردة، تزداد دفئاً راحت خدماتها تمنحُ باستمرار متعةً زائدةً لزبونها الشاب المفضّل. بدأتْ بحلاقة الذقن، لكنها تابعت بتدليكٍ يتناوب برفاهٍ ما بين وضع مناشف حارة وكريمات باردة تفوح بعبق المنتول. كان جلد باولو الطريّ صافياً؛ لونه بلون كريمات شديدة الكثافة وناعم الملمس مثلها. ومن وجهة نظر مواد التجميل لا أهميّة للتدليك نفسه، لكنّ رفاهيته هي العذر الضمنيّ، إلى جانب الحديث، الذي كان اللمس المستمرُّ للوجه يجعله حميماً بشكلٍ طبيعي. وبينما باولو يخضع لحلاقة ذقنه وللتدليك، وهو طويلُ القامة بالنسبة إلى إيطالي من الجنوب، جلس غائصاً في الكرسي وساقاه ممدودتان على طولهما ومتباعدتان وقد وضع إحدى يديه على قلب وجوده، أي على عورته. واليد الموضوعة هناك كانت كالسلك الكهربائي المُقحم داخل فجوةٍ بهدف إعطاء طاقة ودورٍ لموضوع المناقشة الذي لا يتغيّر وهو التجربة الجنسية التي يعيش بها ولأجلها الكونت الشاب باولو. كان طابع الكسل والرفاه والحُلم يسود الصلة التي تربطُ هذين الشابين منذ نحو عام، وخلال تلك الفترة كان باولو قد سرد وسلسل تاريخ ثلاث "حاميات" على التوالي، فبدأ بالسينيور كوغان في الصيف الماضي وفي الوقت نفسه تقريباً بالبارون اليهودي فالدهايم الفاحش الثراء الذي كانوا يلقبونه بالبارونة وكان يتكلّم تماماً كامرأة، وبعلاقته القصيرة ولكن الرائعة جدّاً بالسيدة الأميركية الأنيقة، السيدة جاميسن ووكر (الذي سبّب له زوجها عيناً سوداء في طنجة، ولكن ليس قبل أن تقدّم له زوجاً من أزرار الأكمام

المرصّعة بالياقوت وحقّق بهما ربحاً قدره ألفان وخمسمائة دولار) والآن، ومنذ بضعة أشهر، هو على علاقة بالسيدة ستون، التي يتوقّع أن ينال منها أكثر مما نال من كلّ الأخريات مجتمعات بكثير، بما أنّها أفحش الجميع ثراءً والوحيدة التي بدا اهتمامها به يغوصُ أعمق من مجرّد الشهوة العابرة.

كان باولو دلّوع الجميع الشاب أشدّ تفاهة من أن يرى أو يرغب في رؤية أبعد من سطح طبيعة أكثر تعقيداً من طبيعته. إنّه ينظر إلى أي شخص مرةً واحدة؛ في فترة لقائهما الأول، وبعد ذلك يتذكّر بشكلٍ كافٍ كيف كان مظهره بحيث يتجنّب أي تمحيصٍ آخر. كانَ من صُلب طبيعته المغناج وأيضاً لا مبالاته العظيمةً بكلّ شيء عداه أن يشيح بنظره بعيداً عن وجه أي شخص إلا ليُلقي نظرةً فاترةً لا تكاد تلاحظ من أجل سؤالٍ أو طلب. ومع ذلك حتّى باولو، بإدراكه الضئيل، لاحظ وجود شعور بالوحدة لدى السيدة ستون، غير عادي في نوعه وفي درجته، يمكن لمغامر شاب لا يثقل عليه إلاّ أمر نفسه أن يُسخّر لمصلحته العليا حالما يمرُّ بسور لباقتها الاجتماعية وتحيصناتها الصغير. وقد كانت تحصينات السيدة ستون هائلة نوعاً ما، فقد عاشت في العالم ضعف الفترة التي عاشها باولو وعرفت من خلال مهنتها عدداً لا بأس به من الشبان يتمتّعون بمزايا قليلة وبقدر معتدل من الجمال ولا ينظرون إلاّ في المرايا. في الماضي لم يثيروا اهتمامها، لكنها عرفتهم. كانت تحبُ أن تراهم يمثّلون أمامها على خشبة المسرح لأنّ قدرتهم على المقاومة كانت قليلة. كان شيئاً يشبه غرز إصبعك في فطيرةٍ منتفخةٍ لاختبار حجمها. ومع ذلك قاموا بعمل طيب كممثلين مساعدين. لم يكونوا يحسّون بالإثارة ولا يُثيرونها. كانت

تعرف ماذا سيفعلون فتلغيهم بإشارة. كان ذلك العمل ممتعاً. أحياناً كان من الممتع أن تقبض على راحة يدهم الرطبة الطريّة في رواق خلفيّة الخشبة وتقول: لا داعي للتوتّر! بعضُ المسرحيات تعرض والبعض الآخر يلغى...". وكانت تفوحُ من غُرف ملابسهم رائحةً جميلةً، وأجسادهم لا تبعثُ عبقَ الذكور، أو ليس بمقدارٍ كافٍ للتعرُّف عليها من بين فوح التلك أو كولونيا الصنوبر. كانت تشعرُ نحوهم بنوعٍ من الحب قائم على معرفة أنهم قادرون على التدمير، وهو الحب الأشد دفئاً لأنّه ممزوجٌ بالاحتقار.

في الفترة الأولى فقط استطاعت السيدة ستون أن ترى تطابقاً بين باولو والشبان الذين سيطرت عليهم بسهولة خلال حياتهم المهنيّة الماضية. وسرعان ما برزت للعيان فروقٌ معيّنة؟ وبشكل ما حالت شكاسته وتكاسله دون أن يصبح أنثويّاً. وكان ما يزال ممكناً تمييزُ عبق جنسه من خلال عبير غسوله المطيّب الممزوج برائحة الورد، وهو شيءٌ طالما قالت السيدة ستون إنّها لا تحبّه في الشبان الصغار وكانت حسّاسة بشكل خاص حياله. وقد لاحظته منذ لقائها الأول بباولو وقالت لنفسها إنه شيءٌ كريه، غير أنّها، لاحقاً، صارت تجد نفسها تقف إلى جانبه فقط لتلتقطها، وتبقى إلى جانبه حتّى بعد أن تشعل له سيجارته أو بعد أن تضع كأس الشراب في يده، تبقى في مكانها وكأنها استغرقت برهةً في تأمُّل شيءٍ ما. يداه بحدّ ذاتهما كانتا تثيران الاضطراب. وعلى الطاولة فوق الأريكة في المكتبة وضعت كرة مضيئة تمثّل العالم. كان في داخلها مصباح كهربائي. وكثيراً ما كانت يدا باولو، وهما مرتاحتان على فخذيه المُلبّسين بالجوخ وكأنهما متيّمتان بالإحساس بجسده، تبدوان كبيرتين متوهّجتين كنصفي الكرة الأرضيّة المُضاءة وكانت

تتخيّلهما موضوعتين على ثدييها، كلّ منهما تُغطّي كلاًّ من ثدييها تماماً وتمنحهما الدفء...

لكنّ السيدة ستون لم تتخلّ عن وسائل دفاعها؛ فهذه الاكتشافات جعلتها فقط أشدّ حذراً وقلقاً. وحين كان يوصلها إلى المنزل في وقتٍ متأخّر من الليل تقول له أسعدت مساءً عند الباب، وكان دائماً يغالبهما قليل من الإحجام في الدقائق الأخيرة، وأحياناً كانت تلغي حركة تقديم يدها له. وعلمت السيدة ستون، بقدر ما علم باولو. أنّ المعتدي في علاقة ما عليه أن يتخلّى عن موقع الأفضلية. هي أيضاً كانت تحمل ذات مرّة ورقة الجمال الرابحة التي يحملها هو الآن، وقد احتفظت بها ردحاً طويلاً من الزمن بحيث ما يزال سلوكها الاجتماعي وتصرّفاتها العامة يعتمدان على تلك الملكيّة. لقد أظهرت بوضوحٍ كما فعل باولو، أنّها متعوّدة أكثر على تلقّي الغزل من تقديمه.

بعد ظهر يوم لقائهما الأول، حين احضرت الكونتيسة باولو إلى شقة السيدة ستون، ترك بطاقته المحفورة والمتوّجة بشعار تحت منفضة على رف مدفئتها. وكانت بطاقة تحتوي على رقم هاتفه في إحدى زواياها وعنوانه في أخرى. لكنّ الأيام مرّت ولم تطلبه السيدة ستون ولا ذكرته أمام الكونتيسة التي كانت تراها طوال تلك الفترة. وأخيراً اعترفت الكونتيسة بأنّ الخطّة الاعتيادية قد فشلت وأنّ عليه أن يقوم بنفسه بالخطوة الأولى. قالت الكونتيسة إنّ هذه المرأة ما تزال مملوءة بالكبرياء، ولم تتصالح مع سنّها بعد. ففي المرّة الأولى التي اتصل فيها بالسيدة ستون جلست هي إلى جانبه لتحثّه بالهمس وبالإشارات. لم تكن المكالمة مُرضية. كانت السيدة ستون ودودةً، لطيفةً ومتزنة. عرفت

اسمه على الفور، حتّى إنّها ذكرت البطاقة التي تركها على الرف، لكنها لم تعرض عليه الدعوة إلى حفلة كوكتيل أو عشاء، التي كان هو ومستشارته يتوقعهانها. كان ضرورياً أن يقوم باولو بعرض الدعوة. كان عليه أن يدعوها إلى العشاء ويدفع التكاليف من جيبه هو. لم تُخفِ السيدة ستون سرورها في صحبته لكنها استمرّت في ترك حبل المبادرة بين يديه، ولم تتنازل بالاتصال بباولو هاتفياً إلاّ لاحقاً. كانت تلك هي الحركة الإيجابية الوحيدة التي قامت بها ولم تكن كافية لتجعل يده هي الطولى. ولمّح باولو إلى اصدقائه في ساحة فيا فينيتو كذباً إلى أن السيدة ستون هي عشيقته. صحيح أنّه رأى الشهوة في عينيها، لكنها ظلّت مكانها، كما في مرآة أو خلف واجهة. لم تقفز خارجة استجابة إلى إغراءاته الذكيّة، وبالتالي أصبحت إغراءاته أقلّ ذكاء. لم تعدْ أوضاعه الحريميّة المتكلّفة والمسترخية تنفع كخدعة، وهكذا ذات أمسية مدّ باولو يده وقبض على أصابعها المُرصّعة بالمجوهرات ووضعها على ركبته. ضغط الأصابع بحزم تحت يده ثم خفّف الحزم، لكنها بقيت حيث وضعها فقط دقيقةً أو اثنتين. ثم حرّرت يدها برفق من قبضته وأعادتها إلى حجرها من دون أن يبدو أنّها فوجئت بالحدث.

كان الوضع بالنسبة إلى باولو مُربكاً ثم أصبح مُتعذّراً الدفاع عنّه، لأنّ باولو كان يعيشُ حسب تيار الزمن وها هو يجري عكسه. لقد منحته سيولة أزرار الياقوت التي وهبتها له السيدة جاميسن ووكر في مراكش، موسماً مُرفِّهاً واحداً. غير أنّ ذلك الموسم انتهى، وكان يجب أن يظهر بديل له من نفس طبيعته، مثل ثروة وشيكة، وسريعاً إذا أراد باولو أن يتجنّب القيام بخطوة

التراجع، أو بتنازل كبير، يؤدّي غالباً إلى التخلّي الكامل عن الحملة.

صرخ باولو في وجه الكونتيسة "أنا أعرفُ أنها ترغب فيّ، فلماذا لا تقول أو تفعل شيئاً؟"

قالت الكونتيسة "صبراً؛ روما لم تُبنِ في يوم واحدد!".

قال باولو "أنا رومانيّ"، ولستُ روما. إذا لم تقُم بتحرّك قريباً، سأبدأ جولاتي في ساحة الغاليريا!".

حذّرته الكونتيسة "إذا فعلت ستنتهي. في الغاليريا عبقٌ لا يعلق فقط في الملابس بل وعلى الجلد وفي الأنفاس! حتّى لو جعت مثلي فعليك أن تكون من القوّة بحيث تقامر من أجل الحصول على كلّ شيء أو لا شيء...:

هذا ما كانت عليه الأمور في بعض ظهر أحد أيام شهر نيسان حين شاهد باولو وحلاّقه الشاب ريناتو السيدة ستون تترجّلُ من سيارتها الكاديلاك ذات السقف القابل للطيّ، من مكان قريب جداً من الواجهة حتّى إنّهما شاهدا بوضوح النظرة القلقة، الخائفة قليلاً التي تحملها عيناها الزرقاوان الباهتتان دائماً حين تكون وحدها وتظن أنّ لا لأحد يراقبها.

قال باولو بهمس مجفل "يا إلهي، أهي قادمة إلى هنا؟".

قال ريناتو "تلك السيدة؟ ليست من زبائننا".

هتف باولو "ألا تعرف من هذه؟ إنها السينيورة ستون!"

شاعت في المحل همساتُ حادّة؛ فبرّدت المناشف وجُفّفت الفراشي الجلدية بينما وقف الطاقم بأكمله؛ الزبائن، الحلاّقون ومشذّبو الأظافر والصبي الجديد، مُثبّتين انباهم على السيدة وهي

تعبر إطار الواجهة متردّدة. وأثناء تلك اللحظات أرجأ شيءٌ في مظهرها المنفيّ عن زمن عظمتها، السخريّة التي تعرّضت لها جرّاء ثرثرة باولو.

قال ريناتو كأنّه يعتذر "لم أكن أعلم أنّها سيدة عظيمة إلى هذا الحدّ! "

حتّى باولو نفسه فوجئ، ليس بالسيدة التي لا يعرفها غيره، وإنّما بالأثر الذي تركته على الآخرين. ولكن لم يناسبه أن يحمل حجراً بيده ولا يرميه. وهكذا ألقى ملاحظته إلى المجموعة قائلاً إنّها ليست عظيمة بحيث لا تلتفت إلى المضخّة إذا ما اشتعل المنزل.

بدّدت نوبات الضحك الهادر لحظة الاحترام. لأنّ ملاحظة باولو كانت لعباً على مثلٍ سوقيّ معيّن له تضمين فاسقٌ خاص. أما بالنسبة إلى باولو فكان ذلك انتقاماً مرضياً للموقف الذي وضعه فيه تحفّظ السيدة ستون. وبعد أن أطلق التلميح أقسم لنفسه بأن يُحققه: سيقوّض تحفّظها، وها قد بدأ منذ الآن. بالأمس كلّمته مرتين هاتفياً وفي المرّة الثانية تثاءب أثناء المكالمة واعتذر عن تلبية موعد معها. لعلّها تفكّر فيه الآن؛ بل لعلّها تبحث عنه في طول الشارع العام. يكاد يرى شعرها المصبوغ أصفر، ويتحسّسه مُنهمراً على امتداد أصابعه وأنفاسها الحارّة، وهي تهفو إلى فمه، يُجبرُ على الانسدال إلى أسفل بينما يتلوى هو بنشوةٍ زائفةٍ. في إمكانه أن يفعل ذلك، نعم، في وسعه أن يراهن بحياته على ذلك وسيفعل! فعلى الرغم من مواهبها كممثلة فإنّ عينيّ السيدة ستون البنفسجيتين تفضحانها؛ فيهما طائر نهمٌ في استطاعته أن يُحرّره من سجنه، ولكن لن يدعه يُحلّق إلى السحاب...

وكأنّها سمعت قصف الضحك في المحل وفهمت أنّها موضوعه، لذا رفعت السيدة ستون يداً متدثّرة بقفّاز لتحمي وجهها وبدأت تتحرّك باتجاه معاكس للاتجاه الذي كانت تنوي اتخاذه أولاً، وهي تشقُّ طريقها بين مجموعة من طاولات الرصيف موضوعة أمام مطعم مجاوز وكأنها تقوم ببحث قلق. ولم تكن قد ابتعدت عن إطار الواجهة حين أصبح لها تابع. فقد قلب شابٌ معيّن كان يتسكّع عن الزاوية منذ نصف ساعة ياقة معظفه ليُخفي غياب القميص وراح يتحرّك على مسافةٍ مسحوبة بإتقان خلفها.

ضحك ريناتو لهذا المشهد وتبدّد شعور باولو بالانتصار. أحسّ أنّ الشاب الذي انطلق في أعقابها كان يفكّر، بشكل لا يعجبه، في أن يشاركه في علاقته بالسيدة ستون. اعتدل في جلسته وضمّ ركبتيه معاً، وقطع الاتصال بقسوة ما بين فخذيه وفخذي الحلاّق الشاب الضاحك.

ثم تمتم: Subito, Subito! (عجّل، عجّل!)، لديّ موعد ألبّيه".

***

شعرت السيدة ستون بارتباك وسط رذاذ الضوء المنهمر على أرصفة روما الربيعية. كلُّ الواجهات الزجاجية مُلمّعة بمهارة عالية حتّى لا يكاد المرءُ يرى ما خلفها أحياناً. وأحسّت بحمقها وهي واقفة تجهل كيف تتوجّه وإلى أين تذهب. لا شكّ في أنّ الغرباء يعتقدون أنّها ثملة. فكونها بلا هدف يُشبه كونها ثملة. في نيويورك كان لديها دائماً لقاءات تعقدها، لتكون في مكانٍ معيّن في ساعة معيّنة: أما هنا فأبداً! إنّها حرّة في أن تتجوّل على مدى ساعات طوال بلا هدف محدّد. مواعيدها الوحيدة هي مع باولو، ولقاءاتها

مع باولو دائماً غير محدّدة تماماً. يقول لها سأتّصل بك في الصباح، أو سأصحبك إلى حفلات الكوكتيل. ونادراً ما يُحدّد ساعةً بعينها. أحياناً لا يظهر أبداً. وهذا اليوم هو أحد الأيام التي لا تسمعُ فيها عنه أي شيءٍ أو تراه، مما يجعلها تدرك مدى اعتماد حياتها الكامل في روما على هذه العلاقة، كقماش الخيمة الذي ينهارُ ليغدو كومةً من الثنايا الرخوة من دون وجود العمود الداعم له.

الآن فتحت حقيبة يدها وراحت تفتّش بين محتوياتها عن نظارتها الشمسية، لكنّها لم تجدها. غريب كم صارت تنسى من أشياء هذه الأيام. ليس هناك الكثير في عقلها. في الحقيقة في عقلها لا يوجد إلاّ باولو، ومع ذلك فهي أكثر انشغالاً مما كانت عليه في أي فترة قلقة كانت تستعد خلالها لافتتاح مسرحية جديدة. وتوقّفت مرة أخرى على الرصيف وسط هذه الأفكار، حتّى إنّ المشاة على جانبي الطريق راحوا ينعطفون حولها. وطرفت بعينها بإبهام إلى الواجهات وشدّت قليلاً على قبعتها ذات الحافة العريضة، وبدأت عيناها تترقرقان بالدموع. إذا أجبرها الوهج على البكاء فإنّ الصباغ الأسود الذي على رموشها سينحلّ. لذا تابعت سيرها مسرعة وعند أوّل منعطف انحدرت مبتعدة عن الشارع العام إلى شارع معتم نسبياً. أراحتها العتمة قليلاً لكنها لم تخلّصها من شعورها بالاضطراب. يجدر بها حقاً أن تتوقّف في مكان ما وتلملم شتات ذهنها. لقد كان تصرّفها أحمق تماماً! لماذا خرجت من السياسة وصرفت السائق؟ لم تعد الآن تتذكّر حتّى أين قالت له أن يُقابلها أو في أي ساعة. ماذا تفعل، أهي تبحث عن باولو في الشوارع ككلب ضالٍّ خرج يشمّ أثر صاحبه الغائب؟ إنّ الأمر ليس بهذا السوء حتماً، وحتّى لو كان سيئاً إلى هذا الحدّ، فعليها أن

تجلس في أي مكان وتحاول أن ترتّب أفكارها وتخرج بنتيجة عاقلة. إنّ شيئاً كهذا يمكن أن يدفع إلى الجنون التام إذا سُمح له بالهيمنة على العقل.

توقّفت من جديد. هذه المرّة أمام واجهة طويلة بالرغم من أنّها تظاهرت بالنظر إلى الداخل إلاّ أنّه لم يكن لديها أي فكرة عمّا تحويه الواجهة. كانت واقفةً هناك لتتحكّم في توازن أعصابها لتوجّهها. لكنّ اللحظات امتدّت ولم يحدث شيءٌ في عقلها. أصبحت محتويات الواجهة أكثر وضوحاً. كانت تحتوي أغراضاً من المصنوعات الجلدية الجيّدة الصنع. تنقلّت عيناها بلا اهتمام بينها، إلى أن أجفلها شيءٌ. كان هناك شخصٌ يقفُ داخل المحلّ المُعتم وينظر إليها. المحل مغلق، لأنّها فترة راحة بعد الظهر الطويلة من الأعمال الرومانيّة، لذا لم يكن المحلّ مضاءً إلاّ بإنارة الشارع المُظلّلة بالأشجار. لم ترَ الرجل بوضوح لكنه بدا سديد الشبه بباولو، حتّى إنّها شعرت بقلبها يطفرُ طفرة إثارة صغيرة. بعدها بلحظة أدركت أنّ الشخص لم يكن في داخل المحلّ؛ ما كانت تراه كان انعكاساً لشخص يقف على الجانب المقابل للواجهة الطويلة ولكن على الجانب نفسه مثلها. كانت قامة شاب، أطول من قامة باولو، ولكن من الطراز العام نفسه. لم تنظر إليه. بعد ذلك لم تعد متأكّدة مما حذّرها من فعل ذلك. ولكن ثمّة دافعاً؛ شيئاً ما حذّرها من الالتفات نحوه، ورضخت، تابعت تظاهرها بتفحّص الأغراض الجلدية في الواجهة، منتظرة بعصبية ذهاب الرجل. لكنه هو أيضاً تلكّأ. وحين سمعت صفيراً واهناً لماء يجري لم تقرنه السيدة ستون على الفور بما كان يفعله المتسكّع الآخر. روما ملآى بأصوات جريان الماء، قريبة أو بعيدة؛ عالية أو

لا تكاد تسمع، وجريان الماء مع انتشار الدرج الحجري كانا يميّزان السمة الرئيسية تقريباً للمدينة مثل القباب ذات لون الكريم على صفحة السماء الزرقاء: لم يكن من السهل تصديق أنّ الرجل الواقف عند الطرف الآخر للواجهة كان يتبوّل هناك. ولم تتعرّف على الصوت إلاّ بعد أن بدأ يتلاشى ومن ثم بلغ إجفالها أشدّه فأطلقت صرخة خفيفةً مسموعة، وأشاحت ببصرها بسرعةٍ بعيداً عن الواجهة، وانطلقت في الاتجاه المقابل على الرصيف، وقد أسرعت الآن، إلى أن وصلت إلى مدخل فندقٍ صغير فولجته لتستردّ هدوءها من جرّاء الصدمة. لم تكن الحادثة صاعقة حقّاً؛ ما صعقها وأزعجها كونها عرفت أن تلك ليست المرّة الأولى التي يعرض فيها ذلك الشاب نفسه عليها. فقد اعترض ذلك الشابُ طريقها مرّات عدّة لا يمكن إرجاعها إلى منطق المصادفة البحت، وأخذ يلفت انتباهها أثناء تجوالها في المدينة، ولم يفعل ذلك قط بهذه الطريقة الصاعقة من قبل، ولكن كان دائماً يبدو وكأنّما يحاولُ أن يرسل إليها ما يشبه الإشارة السرّية...

***

ظهرت في حياة السيدة ستون ثلاثُ حوادث على جانب عظيم من الأهمية والتأثير يفصلُ بين كلٍّ منها سنة من الزمن. وهي تخلّيها عن مهنتها، وموتُ زوجها، وتلك الفترة من حياة المرأة التي تنقطعُ فيها الدورة الشهرية. وكلّ حادثة منها شكّلت صدمة قاسية بحدّ ذاتها، والثلاث معاً تركت لديها انطباعاً بأنّها باتت الآن تعيشُ وجوداً بعد الموت. وانتقت روما لأنّها، إلى حدٍّ ما، أشدُّ الأماكن ملاءمة لعيش مثل ذلك النمط من الوجود، ربّما لأنّ الجزء الأكبر منها ما يزال يعيش في الماضي. في أوّل الأمر مكثت

في فندق اكسيليسيور، لكنها وجدت نفسها مرهقةً بكثرة اللقاءات مع معارف من بين موجة السيّاح الأميركيين وممثلين سينمائيين جارت عليهم سنوات ما بعد الحرب. كانت تجدُ دائماً إحداهنَّ تنطلق عبر الردهة قبل أن تضع نظارتها الداكنة على عينيها وتهتف لها بتحيةٍ تحمل طيّاتها صدمتها الصامتة بمظهرها المتغيّر، بالشعر الذي تركته يشيب والوجه والقوام اللذين غابا بشكل ملموس عن مسرح الحياة العامة كغياب اسمها عن واجهات المسارح المضاءة. ولكي تهرب من تلك المقابلات لجأت إلى شقّتها الحالية التي تشمخُ كوكرٍ منعزل لطائرٍ يعلو فوق سقوف المدينة. كان لديها خادمان وليس أكثر منهما بكثير من المعارف في المدينة، وأخذ جسدها يتواءمُ ببطءٍ مع الوضع الجديد، وأخذت هي تتآلف مع الحوادث الثلاث التي أرهقتها. وتلاشى عنها بالتدريج شعور الصدمة، وذات يوم استعادت لون شعرها الأشقر السابق وصفّفته وأقامت إسطبلاً لركوب الخيل بالقرب من فيلا بورغيز لتعود إلى ممارسة الركوب في صباح كلّ يوم لتستعيد بعضاً من لياقتها البدنيّة. بعد ذلك بوقت ليس بطويل أخرجت دفتر عناوينها واتصلت بكونتيسةٍ عجوزٍ كانت قد قابلتها هي وزوجها أثناء زيارةٍ لإيطاليا قبل الحرب.

اهتزّ صوت الكونتيسة إثارةً حين ميّزت الاسم الذي وصل إلى سمعها عبر الهاتف. إذ لم تكن أهمية السيدة ستون بوصفها شخصية مسرحيةً بارزة ما أثار الكونتيسة العجوز بل ذكرى ثروة المرحوم السيد ستون الطائلة التي أصبحت الآن على الأغلب بين يدي هذه الأرملة الأميركية. كانت إثارتها عظيمة حتّى انبهرت أنفاسها واضطّرت إلى وضع سماعة الهاتف جانباً لبضع ثوانٍ بحجّة

أنّ أحدهم يطرقُ الباب. اقتربت من النافذة واستنشقت الهواء بعمق مرّات عدّة قبل أن تتمكّن من العودة إلى متابعة حديث الهاتف بصوتٍ ملجم وأفكارٍ ملموسة.

انتقل دفؤها المصطنع ولكن الضافي بإقناع إلى القلب المستوحش للسيدة ستون مباشرةً. وقبلت على الفور الدعوة إلى الغداء التي كانت قريبةً جدّاً، وبهذه الطريقة انتخبت السيدة ستون عضواً مؤقّتاً في عالم خاص عجيب من المجتمع الروماني.

حدثَ ذلك قبل سنتين.

أما اجتماع السيدة ستون بالفتى باولو فحديث العهد جدّاً وقد تمّ من طريق الكونتيسة. كان هناك ثلاثة آخرون، وكانت صلة السيدة ستون بكل منهم مكلفة جدّاً لها مع العلم أنّهم لم يكونوا بالنسبة إليها أكثر من مرافقين. ولعلّ كلاًّ منهم كان مستعدّاً لتقديم نوع أكثر حميميّة من الخدمة لكنّ السيدة ستون لم تطلبها منهم. ومن النقطة التي كان كلّ منهم يتقدّم، بأعذار تكاد متشابهة، بطلبٍ لاقتراض مبلغ كبير من المال، ودائماً مع تلميح إلى أنّ هذا سيضعهم تحت خدمتها بشكل أكمل، كانت السيدة ستون تنسحب. كانت تقدّم لهم القروض ليس بازدراء بل بإحساس أقرب إلى الحزن وتؤكّد لهم، في الوقت نفسه، أنّهم أساءوا فهم رغبتها في الصحبة، فلم تعد تراهم بعد ذلك. وما لم تعرفه السيدة ستون هو أنّ كلاًّ من عمليات الاستجداء تلك حدثت بدفع من الكونتيسة وأنّ العجوز كانت تنال حصّة من المبالغ المحصّلة. في أوّل الأمر لم تعِ الأمر لكنّ الوساوس أخذت تساورها، لأنها في كلّ مرّة كانتَ تتخلّص من أحدهم كانت العجوز تظهر مع آخر، تماماً كتاجر يعرض سلسلة من البضائع أمام زبونٍ صعب الإرضاء.

وبدأت السيدة ستون تشكُّ في أمر تلك الجريمة المستترة. واستولت عليها خيبةُ الأمل والألم، بل لعلّ ذلك أذلّها قليلاً، لكنها لم تكفّ عن الاجتماع بتلك العجوز؛ فتلك الشمطاء الجليلة كانت تتمتعُ بكياسة حليمة خاصة تفرضُ احترامها على الرغم مما تحيك من مكائد. ولم يطل الأمر بالسيدة ستون حتّى اكتشفت أنّ نصيرتها الاجتماعية تلك انحدرت إلى الدرك الأسفل من الفقر والشيخوخة وانتقلت إلى منطقة هامشيّة جداً من الطبقة الأرستقراطية وعالم الموضة في روما، وسرعان ما اتخذت السيدة ستون قرارها بأنّ هذا العالم الخاصّ هو الأكثر ملاءمةً لامرأةٍ لم تعد ترغبُ في ممارسة المداهنة وفي بذل أي مجهود. فالسيدة ستون الآن في موقع متحرّر من الوهم ولكن مؤمّن نسبياً لا يخوّلها فقط أن تعرف ما تريد، أما ما يمكن أن تريد، بل ما يحتمل أن يؤول إليه أمرها. لا داعي إلى أن تكون المعرفة معرفة واعية؛ كانت السيدة ستون مصمّمة على أن تقاوم معرفة بعض الأمور عن نفسها وعن العالم. وخلال العام أو العامين الفائتين، ومنذ موت زوجها وتخلّيها عن مستقبلها المهني، حدث انهيارٌ هائلٌ لكن هادئ وخفيّ لحواجز قائمةٍ في عقلها؛ خرقٌ هائلٌ وتدفّق مبهر في عبارات الاعتراف بالجميل الصريحة، ولكن لم يكن هناك مبرّر لحفرها على جدران جناحها، إذ يمكن معرفتها حتّى من دون أن تقول أنا أعرفها. إذا لم يكن للانجراف هدف، فله اتجاه، وأحياناً يكون الاتجاه هو كلّ ما نعرفه عن الهدف...

لم تسرْ العلاقة بين السيدة ستون والشاب باولو على الإطلاق إلى ما ترضاه الكونتيسة. لقد قرّرت تلك السيدة أنّ باولو عمل على خداعها، لأنّه لازم السيدة ستون ملازمة دائمة تقريباً من دون

أن يحصل على أكثر من بضع ربطات العنق ووجبات عشائه. وحين كانت تزورُ الشاب حاملة إلحافاتها البرمَة كان دائماً يسكنها مستخدماً إحدى عِظاتِها، فيقول: اصبري أرجوك، إنّ روما لم تبنَ في يومٍ واحد.

قال باولو إنّ ما فشلت الكونتيسة في فهمه هو أنّ السيدة ستون لم تكن سيدة عادية؛ إنّها سيدة عظيمة، بل وعظيمة جدّاً حقّاً، ولا يمكن معاملتها بسخرية كما عامل، مثلاً، السيدة كوغان العجوز في كابري في الصيف الماضي.

لم تتأثّر الكونتيسة بتلك المناظرات، فأوّلاً كما قالت له، لا وجود لما يُسمّى بالسيدة الأميركية العظيمة؛ إنّه تعبيرٌ متناقض. فالسيدات العظيمات لا يظهرن في أمّةٍ عمرها أقلّ من مائتي عام. وأخبرته أنّ السيدة ستون ليست فقط حديثة العهد بالمجتمع بل وفنانة متواضعة، أه، نعم، كانت شخصيةً شهيرة من دون أدنى شكّ. لكنّ أشخاصاً شاهدوا عروضها على خشبة المسرح في نيويورك ولندن أكّدوا للكونتيسة أنّها شخصية مرموقة أكثر منها فنّانة؛ كانت ذات يوم جميلة جمالاً خارقاً، نعم، لا يزال الناظر يرى بقاياه: إنّها ما تزال تسير في الشارع وكأنّها تخطو لتظهر على خشبة المسرح؛ كانت شخصية مهيبة وما تزال وسيمة، لكنّ فتى غراً لم يرَ من العالم الكبير إلا قليلاً فقط يسمحُ لهذه الواجهة بخداعه. وقالت الكونتيسة إنّ السيدة ستون، أصلاً، ليست سوى ساقطة أصابها الثراء وهي الآن في مركز يسمح لها بإنفاق المال في المواضع التي كانت تتلقّاه فيها ذات مرّة، وكأغلب النساء من هذا الطراز وفي هذه الظروف فإنّ صلاحياتها غير محدودة بشكل مميّز. لم تكن تتمتّع بهيبة حقيقية أو بكبرياء حقيقية، ليس لديها

إلاّ ادّعاءاتها المعتادة التي تصدر عن امرأةٍ شقّت طريقها بقوّةٍ وأنفقت المال لتصل إلى الشهرة. وأخيراً قالت الكونتيسة إنّ هذه "السيدة العظيمة" توشك أن تصبح "tipo cattivo" (من النوع الشائن). لقد أصبح أمسها شائناً. وبعد فترةٍ وجيزةٍ من الآن لن يستقبلها أحد في تلك الأوساط التي كنت حمقاء فقدّمتها إليها، إلاّ أنّ هذا لن يوقفها. بعد أن تستنفد فرصَها في روما ستنتقل إلى طنجة: إنّ امرأة تسقط سقطتها لا ترتطم بالقاع أبداً!

قال باولو "أعتقد أنّك خبيثة. المرأة تعاني الوحدة ولم تعد شابةً واستقالت من عملٍ شديد الإثارة. لكنّي متأكّد تماماً من أنّ شعورها نحوي، نعم، رومانسي، وليس أنانياً! إنّها لم تقم بأي بادرة لتقودني إلى السرير. إنّها لم تُقبّلني مرّة واحدة. كنا عند باب بيتها ليلاً نتبادل تحية المساء. وهذا بلا شكّ يشكّلُ تناقضاً كبيراً مع ما كانت عليه علاقتي بكلّ من السينيورة كوغان والبارونة فالدهايم بل وحتّى السيدة جاميسن ووكر الجليلة أخذتك إلى مراكش وأهدتك زرّين من الياقوت يساويان فدية ملك قلت لي إنّهما من الزجاج! أتعلم ماذا أعتقدُ؟ أعتقدُ أنّك متيّم بالسيدة ستون وأعتقدُ أنّها الوحيدة التي ضاجعتها وتضاجعها باستمرار، بانتظام. نعم، أعتقد أنّك تكذب بشأن كلّ شيء وتنتحلُ الأعذار! وفي هذه الأثناء تُزيّن عشّك! وأنا؟ الليلة الفائتة أغمي عليّ من شدّة الجوع. نعم، نعم! أغمي عليّ تماماً، حين شممتُ رائحة طعام وأنا أمرُّ من أمام مطعم روزاتي! وكنتُ برفقة مجموعة من الأميركيين الذين كانوا يُحسنون إلى شحّاذي الشارع بمبالغ تكفي لإطعامي طوال أسبوع! لكنّ لي كرامة. إنّني أطلبُ كأس كونياك وأفتحُ حقيبتي وكأنّي أنوي أن أدفع ثمنه بنفسي! بينما أنت تشاطر السيدة ستون

وجبة عشاء في مطعم الكويرينال! تحشو معدتك، أيّها الجشع! ثم تقول لي إنّك لم تنل شيئاً منها، وإنّني خبيثة لأنّي أعتقدُ أنّها تشتري منك...

هتف باولو "Aspet, aspet un momento! (انتظري، انتظري لحظة!). أنت تعتقدين أني لستُ أكثر من marchetta (طُفيلي!)[1] وضيع؟".

"Figlio mio (يا صغيري!) وأي شيءٍ آخر يمكن أن تكون؟"

قال باولو "أنا !de loi (من آل ليو!)".

قالت الكونتيسة؟ وأنا ولدتُ في العالم الأسود!".

قال باولو Davvero "(حقاً!) وستموتين في السوق السوداء!".

شهقت السيدة العجوز. لم تكن طويلةً بما يكفي لتصفعه على وجهه حين مال إلى الخلف بعيداً عنها فضمّت قبضتها وهوت بها على جزء قريب منها.

جثم باولو على الأريكة يئنُّ بطريقة مصطنعة.

قالت العجوز وهي تتأمّله بحبور "!Ecco! Ecco (هاك! هاك!). آمل أن يعطّلُك هذا عن العمل المسائي!".

***

المرّة التالية التي قابلت فيها الكونتيسة السيدة ستون كانت في فيلا في الضواحي حيث كانتا معاً ضيفتين على مائدة غداء صانع

(١) الطفيلي: المقصود هنا هو الشاب الذي يعيش على حساب النساء ثمناً لمرافقته لهنّ ومضاجعتهنّ أحياناً.

أفلام في هوليوود كان يصوّر فيلماً في روما. في تلك الحفة أسرعَت بالتنحّي بالسيدة ستون جانباً خفية.

قالت السيدة ستون "علمت أنّك تقابلين الشاب باولو كثيراً مؤخّراً وباعتباري أقرب صديقة لك في روما أرى لزاماً عليّ أن أخبرك المزيد عنه. أظنّك ترينه فاتناً، أليس كذلك؟ الكلُّ يعتقد ذلك. إنه أكثر الفتيان سحراً في روما، مما يجعل من الممكن أن يكون أكثر فتيان العالم سحراً. ولكن هناك أشياء معيّنة أكثر أهمية من الفتنة".

سألت السيدة ستون مبديةً جهلاً غير متكلّف بها "ما هي هذه الأشياء؟".

قالت الكونتيسة "إنّ باولو يفتقر إلى المواصفات الرومانيّة الحقيقية! إنّه ينحدر من عائلةٍ فقيرةٍ لكنّها طيبة جدّاً، مع أنّ اللقب يخصُّ عمّته وقد منحه إياه البابا قبل نحو خمسةٍ وسبعين عاماً. ولكن ثمّة شيءٌ يجب أن تضعيه في حسبانك عن باولو، إنّ باولو أقرب إلى الـ "marchetta" ماذا؟".

"هذه الكلمة ترادف صفة الفتى الذي يعيشُ حياةً جيدة من دون أن يكون له عملٌ أو مال. ما رأيك بهذا النوع من الناس؟".

لم تستطع السيدة ستون منع نفسها من الابتسام بصراحة لهذا السؤال.

قالت "لا أضمر شيئاً ضدّهم".

قالت السيدة العجوز "عظيم، عظيم! ما دمت تعرفين ماذا تتوقّعين فأنت في مأمنٍ من الخطر، ولكن تأكّدي من أنك تحصلين على ما يعادلُ ما دفعت من نقود، !cara (يا عزيزتي) أعتقدُ أنّ السينيورة كوغان قد خدعت بشكلٍ سيء".

"السينيورة كوغان؟"

"أوه، ألا تعرفين السينيورة كوغان؟ إنّها من أميركا أيضاً وفي الصيف الفائت أخذت باولو إلى كابري ويُقال إنّ السينيورة كوغان هي الوحيدة في الحفلة التي لم يضاجعها وانتابتها نوبةٌ عصبية من شدّة اشتياقها حتّى الآن المسكينة أصيبت بأكزيما عصبيّة. وقد بدت من البشاعة بذاك الطفح الجلدي حتّى إنّها طارت مباشرة إلى أفريقيا واختفت بين الأدغال. على أي حال ـ هناك شيءٌ طيّب في باولو غير مألوف في فتة من نوعه... أعني النوع الذي نصفُهُ بأنه machetta. فهو لا يتمتّع بأصابع خفيفة. حتّى السينيورة كوغان ما كانت لتستطيع الادّعاء بأنّه لمس مجوهراتها أو أي شيء لم تهده إيّاه، والواقع أنّ السينيورة كوغان كانت تمتلكُ قطعاً من الحلي الثمينة جدّاً في مجال الأحجار الكريمة. وقيل لي إنّها كانت تتركها طوال الليل في صحفة قطعة الصابون. وفي رأيي الآن، وربّما هو رأيك أيضاً، أنّ أي امرأة راشدة في العالم تضع ما قيمته مائة وخمسون ألف دولار من الزمرد والجواهر في صحفة قطعة الطابون، ليس حتّى في حمامها الخاص خلف باب موصد، وإنّما في حمام يقع بين غرفة نومها وغرفة نوم أخرى مفتوحة على شرفة. إنّ مثل هذه المرأة ليس لها الحق في التمتّع بثروة طائلة إلاّ بقدر ما لقرد، وأدغال أفريقيا هي المكان الذي يليقُ بحق بالسينيورة كوغان!".

وجدت السيدة ستون هذه الحكاية حول السينيورة كوغان وباولو، ولأسباب لم تفهمها بعمق للوهلة الأولى، مزعجةً أكثر منها مضحكة. وأرسلت بصرها عبر الغرفة إلى الفتى الذي كانت الكونتيسة تتحدّث عنه. كان يراقص زوجة صانع الأفلام على

موسيقى صادرة من فونوغراف وألفت السيدة ستون نفسها تفكّر في أنّه لا شكّ أنّ هذا الجمال هو عالمٌ قائمٌ بذاته تحظى فوضاه بترخيصٍ إلهي. كانت تعرف أنّها بدورها كانت ذات يوم تتمتّع بجمال مثله وحظيت بالامتيازات الفوضوية لمثل هذا الجمال، إلا أنّ حقّها في الاستمتاع بها سحب منها بمرور الزمن. الآن باتت تعيش في عالم يخضع لقوانين دنيوية. لعلّه ليس هناك ما يعادل هروب السيدة كوغان بالأكزيما العصبية إلى مجاهل أفريقيا في إذلاله، ربّما لا شيء من هذا ينتظرها، ولكن من المؤكّد أنّه من الحمق أن تأمل في أن تثمر رقّتها مع هذا الفتى الأسمر وجماله الطاغي شيئاً يضيف جديداً إلى مخزونها الصغير من وسائل السلوى، بعد أن أمضت لياليها في جوٍّ من التكاسُل الحزين...

تابعت الكونتيسة كلامها لبعض الوقت قبل أن يعود انتباه السيدة ستون إلى ما كانت تقوله.

طرحت الكونتيسة ما بدا أنّه سؤال دخيل "إلى أي كنيسة تنتمين؟ "

قالت السيدة ستون "لا أنتمي إلى أيٍ منها. أنا ولدت منهجيّة لماذا تسألين؟ ".

قالت الكونتيسة "أه، إذن لعلّه سيسرد عليك قصة صديقه الكاهن الخبيث الذي يعمل في السوق السوداء! ".

"أي حكايةٍ هذه؟ ولِمَ؟ "

"سيُخبرك كيف خدع الكاهن الخبيثُ صديقه بمبلغ عشرة ملايين ليرة في السوق السوداء، وسيحاولُ أن يلمس شغاف قلبك بعمقٍ بقصّته حتّى إنّك سترغبين في أن تُعوّضي لصديقه خسائره".

قالت السيدة ستون "أوه، لا أتصوّرُ أني سأتأثّر إلى ذلك الحدّ.

قد أتأثّر، ولكن ليس من أجل عشرة ملايين ليرة! تعلمين أنّ الأميركيين ليسوا رومانسيين كما يظهر الأمر في أفلامهم السينمائية...

قالت الكونتيسة بصدقق "خسارة أنّهم ليسوا كذلك".

***

بعد مرور بضع ساعات من بعد ظهر اليوم نفسه، الذي يقترب الآن من المساء، وقفت السيدة ستون وباولو على شُرفة شقّتها وبدت على باولو أمارات الاستغراق في التفكير المتأمّل، عزاه إلى الصداع.

حين لمست السيدة ستون جبينه تنهّد باولو. ألقى إحدى ساقيه من فوق ذراع أرجوحة الكنفا على الشرفة وأرخى كتفيه في وضع الانحناء.

سألته "أترغبُ في كأسٍ من النغروني؟".

"لا، لا أريدُ أن أثمل. وإذا فعلت فسأبكي".

"ولماذا، باولو؟".

"لقد وقع أمرٌ رهيب لأحد أصدقائي".

"آه؟".

"كان يُضارب في السوق السوداء. سأقصّ عليك ما فعل. لقد هرب منه كاهنٌ يحظى بمنصب رفيع في أوساط الفاتيكان وهذا الكاهن قال له إنّه يعرف بوجود مؤسسة فيها كمية هائلة من الذخيرة للجيش الإنجليزي والأميركي تركت فيها هنا بعد الاحتلال ويمكن بيعها في السوق السوداء لتدرّ ربحاً عظيماً وأعطى الكاهن عشرة ملايين ليرة ليشتري كمية كبيرة من هذه الذخيرة فاحتفظ

الكاهن بالنقود لنفسه وخرج صديقي بخُفّي حنين، ثم اتّضح أنّ الكاهن يتعاطى الكوكائين وأنه أنفق العشرة ملايين ليرة على الكوكائين والنساء. فذهب صديقي، فابيو، إلى شخص آخر له مركز أعلى في أوساط الفاتيكان وقال "إذا لم تُرد لي العشرة ملايين ليرة التي أعطيتها لذاك الكاهن المخادع فسأتوجّه إلى الحزب الشيوعي وأكشف لهم الأمر كلّه وستدور فضيحة مريعة ستحطّم الحزب المسيحي في انتخابات الربيع القادم. وشاع الرعبُ أروقة الفاتيكان، وقالوا "لا تذهب إلى الشيوعيين، لا تذهب إلى الشيوعيين!"، وركعوا على ركبهم وتوسّلوا، ووعد صديقي، المتديّن جدّاً، بألاّ يفعل، وقالوا "أرنا الإيصال الذي أخذته من ذلك الكاهن"، فأعطاهم الإيصال. أخذه شخصٌ مهمٌ واختفى به وبقي الآخرون في الغرفة مع فابيو يحتسون الخمر ويصلّون. ثم أوصلوه إلى حالة السكر فقال "أين وصلي ونقودي"، فقالوا "ولكن ليس معك وصل. أين هو"، فقال فابيو "أعيدوه إلي"، فقالوا "ماذا، نُعطيك ماذا؟ نحن لم نرَ شيئاً!".

قصّ باولو هذا كلّه بنفس واحد، وهو يرمي بساقه فوق ذراع أرجوحة الكنفا ويرفعها ثانية ويتلوّى حول نفسه بحركات معذّبة، ويطلق الكثير من التأوّهات، وأخيراً بدأ يبكي بحقّ.

السيدة ستون لم تنصت. شعرت بقلقٍ عظيم وبفقدانٍ شديدٍ للاهتمام وكأنّها سمعت القصة مائة مرة من قبل. لكنّها لم تفهم لماذا يُحدّد مبلغ عشرة ملايين ليرة، وحين انتهى من سرده كانت قد حوّلته إلى رقمٍ تقريبيّ بالدولارات.

غمغمتْ "باولو، متى يحتاج صديقك إلى المال؟"

"بأسرع ما يمكن، وإلاّ فسوف ينتحر!"

"أنا متأكّدة من أنّه لن يقوم بعملٍ سخيفٍ كهذا"

"إنّه يائس. إنّه يكتبُ الشعر. وقد تحطّم إيمانه بالكنيسة".

نهض باولو واقفاً وارتدى سترته.

قالت السيدة ستون "إنّ عشرة ملايين ليرة مبلغٌ ضخم"

"وما قيمة المال إلى جانب الصداقة؟"

قالت السيدة ستون "ولكن حين يتعلّق الأمر بمبلغٍ ضخم إلى هذا الحدّ فإنّ العلاقة تكون عادةً أكثر من صداقة".

قال باولو "وأي شيءٍ أفضل من الصداقة! الصداقة أجملُ ما في العالم"

"من قال هذا؟ هل السيدة كوغان هي التي قالت لك هذا؟"

"السيدة كوغان؟"

قالت السيدة ستون برقّة "نعم، ولكنني يا باولو لا أتركُ زمرداتي وجواهري في صحفة الصابون".

"لا أفهمُ ما تقولين".

"لا أملكُ زمرّداً ولا جواهر؛ لديّ جوهرة أو اثنتان، ولكن لو كان لديّ زمرّد ومجوهرات لما تركتها أبداً طوال الليل في صحفة الصابون. وثمة أمرٌ آخر يا باولو، caro (يا عزيزي!) حين يأتي وقتٌ لا يرغبني فيه أحدٌ لذاتي فإنّي حينئذٍ سأفضّل ألاّ أكون مرغوبةً أبداً".

غادرت الشرفة إلى الداخل. حدث ذلك قبيل إضاءة المصابيح، حين يكون في الجوّ ذلك الصفاء الأزرق المُثير الذي يشمل المشاهد الحزينة في الأفلام القديمة الصامتة، كلون الماء الذي يحتوي بضع قطرات من الحبر.

في غضون بضع لحظات من الآن، إذا غادرها باولو فستسمع باب المصعد يقرقعُ دلالة انغلاقه، ومن ثم هدير حركة الكابلات وهي تنقله بعيداً عنها. انتظرت بقلقٍ لتسمع أصوات الرحيل تلك لكن كلّ ما سمعته كان الصرخات الضعيفة لعصافير الروندي تطيرُ مارّة من أمام نوافذها. شعرت السيدة ستون بالارتياح ولم تستطع أن تنكر سبب ذلك لنفسها. لم تكن تريد أن يذهب، ولما بدا أنّه لن يذهب شعرت السيدة ستون، وللمرّة الأولى في حياتها، برغبةٍ غير مشوبةٍ بأي دافع آخر، أحسّت بها منفصلةً تماماً عن العقل والإرادة، لأنها لم تكن رغبةً عقلانية ولم تكن تريد على الإطلاق أن تشتهي هذا الفتى الذي تزع لتوّه قناع الكونتيسة في ذلك اليوم. "إنّ باولو يميلُ إلى أن يكون"، ما الكلمة التي استخدمتها؟ آه، نعم، marchetta! شيءٌ أفضل قليلاً من عاهرة لكنّ سوقه ما زال رائجاً، وتفوّقه عليها يكمن فقط في كونه أغلى ثمناً؛ صنفاً أعظم رفاهية ورقيّاً، أو ما يسمّيه الفرنسيون بـ poule de luxe...

ضحكت السيدة ستون بصوتٍ أجش لنفسها، وكان يمكن لنغمته الحادّة أن تصدر عن منقار طائر مهاجم، بعد أن رأت ما حدث على الشرفة. وكان الفتى قد أخرج من جيبه فاتورة مدوّناً عليها أنّها تسدّد سلفاً، لخدمات مطلوبٌ أداؤها، وهي لم تدفع قيمتها، لا، ولا طردت صاحب الصفقة، لكنها لمّحت، بأسلوب في التحايل يشبه أسلوبه ـ ألم تفعل؟ ـ إلى أنّه يمكن التوصّل إلى اتّفاق ما بشروطٍ مناسبة. "حين يكون في الأمر مثل هذا القدر من المال فإنّ المسألة تتعدّى عادةً مجرّد صداقةٍ". ألم تحسب المبلغ في ذهنها، ألم تكن تنتظر، الآن، في هذه اللحظة، الموافقة على

الشروط؟ لقد تصرّفت مع الشبّان الثلاثة الآخرين بنبل؛ دفعت لقاء خدماتهم دون مقابل. على أي حال، لقد نفذّت الكونتيسة إلى ما يدور في خلدها وكلما كانت ترفض أحدهم كانت تقدّم لها عيّنة أنضر وأشدّ إغراءً، وراحت تعمل على إنهاء علاقتها بباولو. مع باولو سمحت السيدة ستون لنفسها أن تستمتع بالفكرة البريئة التي تقول إنّ النوع الأنضر يمكن أن يعني نوعاً أرقى، الشخص الذي يمكن إقامة علاقة شريفةٍ محترمةٍ معه. والآن، بعد أن انتهت الأسطورة المتهوّرة، أصبح البشع هو الحقيقي، وأصبحت وحيدة، كان من المستحيل على المرء، بوجود الاحترام، إلاّ أن يكون وحيداً. وها هي الآن وحيدة في غرفة النوم هذه التي تطلُّ على سكالا دي اسبانيا الشاسعة. في المرآة لا ترى غير عينيها تبادلانها النظر منذ أن أتت لتسكن هنا، والسرير كبير وأبيض كمشهد من الثلج الذي تحوّل أزرق باهتاً عند الشفق. "ليتّو" تعني سرير، والـ "ليتّو ما تريمونياله" (السرير الزوجي الواسع) هو ما تنام عليه وحيدةً؛ أغطيته لا تشوّشها إلاّ تقلّباتها.

مع ذلك لم تستطع السيدة ستون أن تنكر على نفسها الشعور الذي سرى في جسمها، الآن، ولأوّل مرة، وسط تكاسلها الحزين الذي كان عليه أن يكسبها مناعة ضدَّ مناعة مثل هذا الشعور إلا أنّه سلّمها له بدل ذلك. وانتابتها رغبات جامحة، وبينما هي تتمرّد عليها. منحتها شعوراً فورياً حادّاً بالوجود. لو أنّ المصعد هبط بالشاب، لارتدّت السيدة ستون عائدة إلى التيار الموحش، إلى الطوفان المضطرب، إلى الانجراف المشوّش المستمرّ لأشياء لا تُحصى في سياق الزمن، تتصادم معاً في لحظة ومن ثم تتباعد باصطخاب ثابت، لا شكل له، لا يعني أكثر من كونه سلسلة من

الصور داخل حلم. هذا التعليق المؤقّت كان يقف معارضاً للتيار. لم يكن يشبه أي شيء شعرت به مرّة أو مرّتين في الماضي. الماضي هو الوقت الذي كان جسمها خلاله ما يزال قناة لتلك التيارات الحمراء التي تدفع بالحياة العضوية إلى الأمام. تلك التيارات المنتظمة تراجعت الآن عن جسمها، تاركة إياه، كمصبّ نهر بلا تيارات عليه تستقرُّ الرغبةُ كصورة القمر على صفحة مياه هادئة. وفجأة لم تعدُ السيدة ستون بحاجة إلى أن تتساءل عن سبب حدوث الاختلاف. إنّ التيارات الحمراء ملأى بالخطر لأنّ لها هدفاً لا يقع ضمن خطّتها في أن تحتلّ مركزاً مرموقاً. وأصبحت تشعرُ الآن برغبةٍ خاليةٍ من الارتباك الشديد القديم الذي يبثّه الخطر. لم يعد في الإمكان تحقُّق أي شيء الآن غير الرغبة وإشباعها الممكن. وبمعرفتها هذا أدركت للمرّة الأولى لماذا تزوّجت (كما قالت ميغ بيشوب إنّ الناس يقولون) لكي تتجنّب ممارسة الجنس. لقد كان رعباً سريّاً فيها؛ إرادةً لا واعية بعدم الحبل. ذلك الرعب تراجع الآن، انزاح مع تراجع مدّ الخصوبة، والآن لم يبق هناك إلاّ البحيرة الساكنة والقمر الهادئ يستقرُّ عليها، بلا انفعال كقبول عرضٍ قاس بشروط تناسب كلا الطرفين.

توجّهت السيدة ستون إلى الحمّام وملأت لنفسها كأساً من الماء الفاتر، وابتعلت قرصاً من خلاصة حشيشة ست الحسن وأعادت ملء الكأس ورجعت به إلى غرفة النوم. أبقت الكأس في يدها. كانت شفتاها وحلقها جافّين جداً حتّى إنّها أخذت ترشف رشفات متتابعة من الماء الفاتر. جلست على السرير مع كأس الماء، وهي ترشف جرعات صغيرة منه بفمها وحلقها الجافّين، بينما أخذ جوُّ الغرفة يزداد عتمةً، كأنّ مزيداً من الحبر يقطر بانتظامٍ من قطّارة.

وجهها في المرآة، الذي استطاعت أن تراه من الزاوية التي تجلس فيها، أصبح بالتدريج أكثر غموضاً وجمالاً، بينما أخذ وعيها بأنّ لا شيء يخيف يتعمّق بثباتٍ داخلها.

بعد قليل نهضت لتخلع عنها ملابسها ومن ثم تمدّدت على السطح البارد المُنعش المُريح للسرير الأبيض وكأس الماء مستقرُّ على الطاولة في متناول يدها. طوال ذلك الوقت لم تصدر أي صوت من حركة غير حركاتها الهادئة، أما الآن فسمعت وقع أقدام باولو تعبُر الشرفة، ثم صوت انفتاح باب الشرفة وأخيراً الخُطى وهي تقترب مباشرةً من باب غرفة نومها.

قالت برقّة "لا تدخل؛ لستُ مرتديةً ملابسي".

دخل متعمّدا وجلس على حافة السرير. لا شكّ في أنه أعاد التفكير في رفضه للشراب لأنّه كانت تفوح من أنفاسه رائحة مشروب الكامباري حين مال عليها. لم يمل مباشرةً ليُقبّلها، بل فقط بما يكفي لينظر مباشرةً وبوضوح في عينيها وهو يطرح عليها هذا السؤال:

"لماذا أردت أن تعرفي متى يريد صديقي النقود؟".

قالت السيدة ستون "لأنّك صغير جدّاً، وأحمق جدّاً وجميل جدّاً؛ ولأنّني لم أعد تلك الشابة الصغيرة ولست جميلةً بما يكفي، لكني بدأت أصبح حكيمة جداً..."

بعد لحظة تأمُّل، أومأ باولو برأسه، بحركةٍ لم تكد ترى، ومن ثم مال كثيراً بشفتين متباعدتين، ولكن قبل أن يُكمل حركته كانت ذراعاها ورأسها قد ارتفعت وكأنّ القمر المستقر على صفحة الماء تحوّل إلى طائرٍ طَفَرَ مُحلِّقاً في السماء...

***

كان فصل الشتاء، وأوائل الربيع ملائماً تماماً لزوّار المدينة الأجانب الذين اختاروا الطقس الذهبيّ مفضّلين إياه على تسالي داخل الأبواب الأكثر حرارة في عاصمتي أوروبا الشماليتين العظيمتين. كانت السماء دائماً صافيةً كالسماء الزجاجية للبرقليط[٢] الصاعد في كنيسة القديس بطرس، وكان كلّ يوم يُضيفُ درجة حرارةٍ أعلى من اليوم السابق. وعادت طيور السنونو الصغيرة التي يسمّيها الرومانيون الرونديني إلى المدينة الآن. خلال النهار تحومُ عالية لا ترى صوبَ الشمس ولكن عند الغسق تنخفض مكوّنةً شبكةً ملتويةً بمستوى شرفة السيدة ستون. وبدت المدينة للسيدة ستون كأنّها تؤدّي خدعة بهلوانيّة محكمة. وفي صباح كلّ يوم ربيعي حين تخرج إلى شرفتها تبدو شبكة الشوارع المنسوجة بدقّة والمُعفّرة بالذهب وتبرز فيها الكنائس ذات القبابُ كعناكب مترنّحة، كأنّها تطفو شيئاً فشيئاً، عديمة الوزن إلى أعلى نحو دفء الأيام الذهبي والأزرق، يشملها السكون، يحوطها المرح، ولا تبذل أي مجهود. مثل هذا ممكنٌ فقط في حالة توفّر الشباب الذي تجاوزته السيدة ستون الآن. أحياناً كان يخفّف عنها أن تزدريه، ولكن فقط لبرهةٍ من الوقت. أمّا الأثر الأطول أمداً والأشدّ تماسكاً فكان إدراكها أنّ شيئاً ما سينتهي نهاية سيئة. لعلّ ذلك الإدراك لم يكن إلاّ اهتراء رداء الانعزال الواقي الذي ارتدته خلال السنة التي تلت وفاة زوجها، تراجع ما كان في الإمكان المحافظة عليه بشكلٍ صحّيّ وها هي الآن تخرج منه إلى مرحلة طبيعيّة أكثر من الإحساس، ومهما كان ذلك فقد كسر الركود فيها وجعلها على

---

(٢) البرقليط: المُعزّي؛ الروح القُدُس.

الدوام نكدةً وقلقةً، وزاد الأمر سوءاً أنّها لم تجد أي سبب تضعُ إصبعها عليه.

صارت الآن تُمضي فترات الصباح تتشمّسُ على الشرفة، في خيمة صغيرةٍ بلا سقف في الكنفا البيضاء. واكتسب جسمُها لوناً ذهبياً، لكن اللون الذهبي لم يكن صافياً؛ كانت تشوبه تغضُّناتُ طفيفةٌ لم تختف تحت الأصابع المُزيّنة للمُدلّكة التي كانت تزورها يومياً، وقد ذابت الطبقة الزائدة التي تراكمت خلال عام من الإهمال بالتدريب والتدليك، لكنّ تواقيع الزمن الدقيقة تلك والتجاعيد الصغيرة، بقيت عليها، لا تُمحى.

أحياناً كان باولو يخلع ملابسه أيضاً في الخيمة الصغيرة البيضاء ويستلقي على سرير خفيف إلى جانبها. لم تكن تحتمل أن تنظر إليه؛ كان يشعُّ بالبريق. كانت الشمسُ تقفز نحوه من الجوّ كما يقفز طفلٌ نحو طفل، وتشعر هي بأنّها مهملةٌ مبعدة، وكانت عادةً تمدّ يدها لتستر نفسها، منبوذةً خجلةً، وهي مع صحبة أليفةٍ مثل لحم باولو العاري والشمس. وذات نهار بكت؛ أدارت وجهها وغطّته بشعرها المصبوغ وراحت تبكي وهي إلى جانبه وأغفى هو لا يُبالي، وابتسامةٌ خفيفةٌ، طفوليةٌ على شفتيه، ويده منحيةٌ فوق ملتقى فخذيه ليقيه لسع أشّعة الشمس.

وذات يوم تشاجرا.

امتدّت سحابةٌ وغاصت الشرفة في ظلّ مصقع وتذمّرت هي من ذلك. انتصب باولو فجأةً واقفاً ورماها بنظرةٍ رومانية عابسة.

"ألا تريدينها أن تمطر؟"

"طبعاً لا أريدها؛ أكره ذلك!"

"أعتقدُ أنه لم يخطر في بالك أن هناك اعتبارات أخرى غير

تسلية الأجانب الأثرياء هنا. لا أظنك تهتمّين بأنّ القمح في البلد يجفّ لقلّة المطر وأنّ مخزون المياه في المدينة قد شحّ إلى حدّ أنّهم يضطرون إلى قطع التيار الكهربائي يومين في الأسبوع! "

"أوه، باولو! "

"أوه، باولو! "، هكذا حاكاها ساخراً، "حسنٌ، إنكنّ أيّتها السيدات الأميركيات الثريات غُزاةُ روما الجُدُد. على الأقل أنتنّ تعتقدن ذلك. ولكن أحذّركنّ، هذه المدينة عمرها ثلاثة آلاف سنة، وكل غُزاتها عادوا إلى التراب".

انتظرت قليلاً ثم قالت له بهدوء:

"باولو، هل كنت فاشستياً؟ "

قال لها "أنا أرستقراطي"

"أهذا هو جوابك؟ "

قال باولو "كان هناك بعض الفوضويين، لكنّهم كانوا عجائز وأغبياء. وحين كنت في الخامسة عشرة أصبحت طيّاراً وكنت قائداً لنادٍ للطيران يُدعى "اليمام" وكنا نرتدي زيّاً أزرق فاتحاً زخرفت على أكمامه رسومُ اليمام الذهبية. كنتُ آمراً لخمس عشرة يمامة. ستٌ من يماماتي أسقطت وهي تحترق فوق أجواء أفريقيا. كانت أفضل يماماتي"

اضطربت يده وهي ترسمُ على صدره العاري إشارة الصليب دلالة الاحترام.

لم تصدّق السيدة ستون قصة اليمام؛ بدت أقرب إلى القصة الخيالية البطوليّة يحكيها صبي كشّاف. لقد كان خيال باولو خصباً لكنه غالباً ما يكون متناقضاً؛ وقبل أسبوع كان قد قصّ عليها

حكايةً مماثلةً، ولكن بدل الطائرات كان هناك دبابات وكان لونُ الزيّ قرمزياً والاسم هو "النمور" وليس "اليمام" وأكثر من ذلك حين فكّ الدولاب عن سيارتها اكتشفت أنّه لا يعرف القابض من الكابح، ولا موضع ناقل الحركة، وكان يقود بشكل خاطئ حتّى أنّ سائقها، الذي انتقل إلى المقعد الخلفي، بدأ يصلّي بصوت عالٍ ويغمغمُ، مما أغاظ باولو كثيراً بحيث طلب من السيدة أن تصرفه على الفور، وظلّ عابساً طوال نصف ساعة بعدها لأنّها رفضت بلطف أن تفعل ذلك.

الآن قال باولو "في العام الفائت اكتشفنا أنّ أحد يماماتنا يتسكّع كلّ مساء في الغاليريا، فعقد اجتماعٌ سريٌّ عند منتصف الليل في قبو الخمر لقلعةٍ قديمةٍ، وقدّم اليمام الفاسد إلى المحاكمة وكان الجميع يتكلمون باللاتينيّة ويضعون أقنعةً سوداء ويحملون شموعاً بيضاء، وألقي الحكم باللاتينية وبعد قراءة الحكم استمع كاهنٌ شاب، هو أحد اليمامات، إلى اعتراف اليمام السيّئ ومنحه الغفران ومن ثم أعطي حقّ الاختيار بين الموت بالمسدس أبو بالخمر المسموم أو أن يقفز بنفسه من برج القلعة.

قالت السيدة ستون برقّة يا للفتى المسكين، وماذا اختار؟"

قال باولو "القفز".

الآن استغرق باولو في سرده حتّى إنه قفز واقفاً على قديمه وهو عار ومدّ ذراعيه في وضع الصلب على حافة سريره، وفقد توازنه وسقط على جنبه بحيث اضطرب جدار خيمة الكنفا كاشفاً إياهما أمام أعالي أسطح مجاورة، والأدهى من ذلك أنّ هذا سبّب للسيدة ستون نوبة ابتهاج صاخبة لا تكبح. ولم يحتمل باولو أن يضحك أحدهم عليه، وكان كلما أظهرت سرورها العفويّ من تصرّفٍ أو

كلام صبياني يتّخذ أشدّ الإجراءات الانتقامية التي تخطر في باله دلالةً على الحقد. وفي تلك المناسبة كان انتقامه شفوياً وأنثوياً بشكل غريب؛ إذ بعد أن أعادا الستارة إلى وضعها واستعاد وضعه النبيل العاري على السرير قال للسيدة ستون "لا ألومك لضحكك؛ سخفٌ مني أن أتكلّم عن يماماتي لشخص لا يهتمُ إلاّ بالبراز الذهبي للصقر الأميركي. ولكن لا تظني أنّك لست أنت نفسك مُثيرةً للسخرية؛ كنت مثيرةً للسخرية في الليلة الفائتة".

قالت السيدة ستون "أنا واثقة من أني غالباً ما أكون مثيرةً للسخرية. ولكن ماذا فعلتُ في الليلة الفائتة؟"

قال باولو "سألتني إن كنت أحبك" "أكان ذلك مثيراً للسخرية؟".

قال باولو "إلى جانب عائلتي ويماماتي لم أحب إلاّ شخصاً واحداً هو ابنة عمي الثانية، الأميرة دي ليو التي اغتصبها جنودٌ أميركيون سكارى في نابولي والتحقت بديرٍ للراهبات الكئيبات. فاضحكي ما شئت! أنا لا أحبُّ أحداً..."

وضعت يدها على يده، لكنه استدار على جنبه بحيث حرّر يده وأعطاها ظهره؛ ظهراً مثالياً لا عيب فيه لمضاجع نحاسي غاضب، وسادت فترة صمتٍ عدائيّة.

بمناسبة الحديث عن الطيور، قالت السيدة ستون بشيءٍ من ضبط النفس "أصحيحٌ أنّ طيور الروندي ليست لديها سيقانٌ ولذلك تبقى في الجوّ طوال الوقت؟"

قال باولو "لا، هي تبقى في الجو طوال الوقت لأنّها لا تريد أن تخالط السيّاح الأميركيين".

استمرّت برودته مع السيدة ستون حتّى وقت متأخّر من بعد

الظهر حين ذهبا لتناول الكوكتيل في الاكسيليسيور، وهناك عرضت فجأةً، كبادرة سلام مذعورة، أن يذهبا إلى خيّاط شهيرٍ في الكورسو ديتاليا ليأخذ مقاس باولو ليصنع له بعض الثياب الجديدة. اعترض ولكن قليلاً، بدلع بنّاتي تقريباً، وفي الطريق إلى محل الخياط أخبرها بأنّ السينيورة كوغان أرادت أن تهديه سيارة ألفا ـ روميو حمراء دموية بمناسبة عيد الميلاد لكنّه لم يقبلها لأنّه لا يحبها. لكنّ هذه تختلف، كما قال، لأنّنا يحبُّ أحدنا الآخر!

حين ذكرته السيدة ستون بأنّه في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم نفسه كان قد قال إنّه من السخف أن تسأله إن كان يحبها، لأنّه لا يحب أحداً غير عائلته ويماماته وابنة عمه التي التحقت بالدير، أمسك بيدها ذات القفاز وقال "قلت لك ذلك لأنّك جرحت مشاعري. ثم إنّك حين تحبّين أحداً يجب ألاّ تصغي إلى ما يقول. إنّه لا يؤذيك بالقول لأنّه يخاف أن يناله الأذى"، ثم أضاف "انظري في عينيه وتلمّسي ما في قلبه!".

قال هذا ببساطةٍ ورقّةٍ ظاهرتين؟، حتّى إنّ السيدة ستون انفجرت بالبكاء، وقالت له إنّ شعور الارتياح والسعادة فقط يدفعها إلى البكاء. ولكن في سريرتها كانت تشكُّ في أنه يمكن تحديد مشاعرها بتلك البساطة.

# الجزءُ الثاني

# جزيرة، جزيرة!

صحيحٌ أنّه خلال فتراتٍ قصيرةٍ من علاقتها بباولو لمحت السيدة ستون قبسات من شيءٍ حسبته السعادة. كان شيئاً لم تتمكّن من تحديده، ذلك الشعور، لأنّها لم تتعرّف عليه من قبل. لقد عرفت ابتهاج الأعصاب بالانتصارات التي حقّقتها في مهنتها، ولكن إذا نجحت المسرحية نجاحاً باهراً تصبح على المدى الطويل مملّةً ومرهقةً، وكان حثُّ طموح التنافس لديها هو ما جعلها تثابرُ في سعيها وراء ذلك النوع من النجاح. في قلبها كانت دائماً تغارُ من المؤلّفين المسرحيين، حتّى الذين ماتوا منذ زمن بعيد، لأنهم لا بد كانوا يتمتعون ببعض الحرية في العمل الخلّاق، أما بالنسبة إليها فكان الأمر مجرّد اتّباع لنمطٍ معيّن من الكلام والحركات. إنّها لم تكن ممثّلةً خلّاقة جداً. في قراراتها كانت ترتاب في أنّها تفتقر إلى الاستنارة، ومع أنّها قامت باستعراض كبير وهي تمجّد نجاحات ممثّلات أخريات، وأرسلت لهُنّ أكواماً من الورود وأسطراً عديدة من برقيات الإطراء. فقد كانت تفرح سرّاً حين لا يتطابق أداؤهنّ وأكاليل الغار التي أعطتها لهُنّ، كانت في حالات

فشّلهنّ فقط تشعر بدفءٍ أخوي حقيقي نحوهنّ. وحين كانت ممثّلة أخرى تحظى بنجاح ساحق يوازي أو يفوق نجاحها، كانت أحياناً تقوم بأداء سيّئ لمدّة أسبوع بعدها، وتذهب إلى حدّ نسيان أسطر أو إلى فقدان صوتها، وذات مرة أصرّت على طرد ممثّلة ثانوية وأرسلت لها هذه الممثّلة بطاقة تقول فيها "أعرف لماذا تسبّبت في طردي. إنّه بسبب انزعاجك من ملاحظات هيلين الرائعة!"، ولكن في تلك الأيام لم تكن السيدة مضطرّة إلى أن تتعرّف إلى حقائق غير سارّة عن نفسها؛ كانت مُنشغلة على الدوام في عملها وفي تكوين نفسها كشخصية اجتماعية ومسرحية مهمّة بحيث لم يُتح لها الوقت، حتّى وإن توفّر لديها الدافع، لتفحّص المبرّرات المستترة في قلبها. وتوالت الأحداث واحدة بعد الأخرى بسرعة كبيرة، وكان النسيج متضافراً شديد الإحكام ومضموناً، وبدا لها مستقبلها منيعاً. كانت تقول لزوجها، أظنني سأصاب بانهيارٍ عصبيّ لو أتيح لي الوقت له! ولكنّ الطاقة الكامنة في كونها لا تزال شابة كانت تستنفد باستمرار في تأمين المستقبل والمحافظة على الكيان الاجتماعي الذي لا يكفُّ عن الانطلاق إلى الأمام، إلى الأمام، من دون هدف ظاهر ما عدا تحقيق الحركة والسرعة بحدّ ذاتهما. وفشلها في دور جولييت أتى كالارتطام بالرؤوس بين سرعتين متضادتين، حينئذٍ فقط أدركت أنّها كانت تنطلق إلى الأمام وعيناها محكمتا الإغلاق وقبضتاها مضمومتان إلى جنبيها، كل ما تعرفه أنها تتحرّك، تتحرك بسرعة. القوة المُضادة هي الزمن، الزمن العصيّ على التقدير، الذي لم يكن يتحرّك بخطى مسالمة معها بل كان غادراً يعمل ضدّها، وأخيراً قابلها وقبض عليها وسط انطلاقها محدثاً ارتطاماً مهشّماً. ومن ثم نهضت

من بين الأنقاض واقفةً على قدميها مع ضحكة اعتبرتها شهامةً مع بعض النبل، وأعلنت للعالم، الذي كان اهتمامه بها أقلّ بكثير مما اعتقدت هي وزوجها، أنّها ستعتزل المسرح بسبب صحة زوجها، وأنّها ستذهب معه في إجازة طويلة إلى أوروبا وآسيا.

صحيح أنّ السيد ستون كان لبعض الوقت في الماضي عُرضة لنوبات ضعف. ولكن حين يهرع المرءُ باستمرار لتلبية مواعيد مختلفة، كما كان السيد والسيدة ستون يفعلان طوال سنوات عديدة، فإنّ فكرة الموت باعتبارها وثيقة الصلة بالإنسان وبرفيق رحلته الحاضر تكون مقبولةً نظرياً وليس كحقيقة واقعة. والمواعيد المضروبة تؤكّد ذلك. فطالما أنّك تعرف إلى أين أنت ذاهب ومتى يجب أن تكون هناك، كأن نقول: مصفّف الشعر في الرابعة، والمصوّر في الخامسة والنصف، والجالية في السادسة، والمسرح في السابعة والنصف، ومطعم ساردي عند منتصف الليل، والإيواء إلى السرير في الواحدة، فثمّة شعورٌ بالمنعة. ما دمت تلازم أماكن كتلك وتلتزم بمثل تلك المواعيد الدقيقة، وتظلّ منشغلاً، تثرثر، تتدرّب أو تمثّل، وتظل تتقدّم، فإنّ العجوز الساكن في عظامك لن يجرؤ حتماً على أن يظهر إلا على صفحة معيّنة في الصحيفة تقع بعد عدّة صفحات من أخبار المجتمع والمسرح ويمكن أن تتخطاها برشاقة وأنت تنتقل إلى أسعار السوق.

إذن لم تجد السيدة ستون من الضروري أن تنظر إلى حالة السيد ستون بعين الجد إلى أنّ استخدمتها كذريعة لإنهاء مسرحيتها المخفقة. حتّى طبيبهما استخفّ بالأمر. قال لهما إنّه مجرّد عارض عابر لما سمّاه بـ"سن اليأس". على أي حال، قبل رحيلهما المُثرّر إلى أوروبا بحوالي أسبوع دعا هذا الطبيب السيدة ستون إلى مكتبه

ليتبادل معها حديث ثقة قال لها إنّ الموقف المُطمئن الذي اتّخذه لم يكن إلا جزءاً من العلاج، وليس التشخيص الحقيقي. وأبدى شكّه الجاد في أن يتمكّن قلبُه الراهن من حمله في رحلة حول العالم والعودة. وكأنّه قال لها إذا أعطيتني مخطّط رحلتكما فسأزوّدك باسم حانوتي موثوق في كل ميناء تنزلان فيه.

وكأنه وجّه إلى السيدة ستون إهانةً شخصيّة.

قالت للطبيب ببرود: إنّ السيد ستون لن يموت؛ فالإنسان يمتلك إحساساً خاصاً بشأن هذه الأشياء، ولو كان ثمة خطر لأحسستُ به في قلبي. لا يهمّني ماذا تقول لك أدواتك؛ إنه مجرّد رجل مرهق اهتمّ بمستقبلي أكثر من اهتمامي أنا به. وبعد أن يرتاح ويستجمّ بضعة أسابيع ستختفي عوارض القلب هذه. طالما انتابني الشك في أنكم معشر الأطبار لستم سوى عصبةٍ متواطئةٍ مع الحانوتيّة وأنه إذا تعطّل أحدكم عن العمل سيتبعه الآخر!

نهضت واقفة، وهي تضحك، لتمارس أسلوبها المسرحي الفخم، فمدّت يدها ذات القفّاز الأبيض للطبيب الذي كان، بدوره، أشبه بمدير مسرح تخطّى صلاحياته وهو يوجّهها، هي النجمة، في موضوع مسرحيّ تقنيّ. ولكن بعد أن غادرت مكتب الطبيب، مع قائمةٍ بأسماء أطباء أجانب تنازلت وقبلتها منه، تقوّض إيمانها باستحالة وجود خطرٍ حقيقي. وبحلول يوم إبحارهما على متن السفينة كوين ميري مشى ذلك الخطر، ذلك الخطر المُحدق، معهما على المعبر الخشبي واستقرّ عنيداً بين زجاجات الشمبانيا المُزيّنة بشرائط جميلة وسلال الفاكهة الملفوفة بورق السيلوفان وتمنّى لهما رحلة ممتعة. كأنّه شخص موجود في غرفة وتتظاهر بأنّك لا تراه لكنّك مع ذلك تنظر دائماً نظرةً غير مباشرة.

كانت تشكُّ في أن يكون السيد ستون، مع كلّ ما يبدو عليه من انشراح مفرط، يعي مثلها وجود ذلك الشبح. فحين لا يكون ضاحكاً أو متكلّماً فهو دائماً يتنحنح أو يعدّل وضع ياقته أو يصدر سُعالاً قصيراً عصبياً. كان يدخّن السجائر إلى ثلثها فقط ثم يسحقها بعنفٍ غير ضروري، وكان في عينيه الرماديتين اللطيفتين الطفوليتين بشكلٍ غريب نظرة لامعة لم تكن موجودة فيهما من قبل، ولا حتّى في أحلك أوقات الكساد الاقتصادي.

من بين الأشياء التي لم تولها السيدة ستون الكثير من الاهتمام من قبل كان مدى ونوعيّة شعورها نحو زوجها، وفي ذلك الوقت كانت تكتشف متأخّرة أنّ ما كانت تظنّه مجرّد صلة عادية هو في الواقع استقلال بالمعنى العميق. إذ كان السيد ستون، والسيد ستون وحده، من شغل المقعد المجاور على متن ذلك الصاروخ الذي انطلق بها بسرعةٍ مدوّخة مخترقاً مسافات عالم كهنتها الفلكيّة. وقد اقترب زواجهما كثيراً، في بدايته، من الكارثة بسبب برود جنسي، وصل إلى حدّ العجز، من ناحيته. ولو لم ينفجر ذات ليلة، قبل حوالي خمس وعشرين سنة، باكياً على صدرها كالطفل، وبهذا نقل موقعه من سيد فاشل إلى وضع العالة الحزين، لشرخ جدار حياته الزوجية. لكنّ إثارة المشاعر الحزينة نجحت حيث فشلت الرغبة. وضمّته بين ذراعيها برقّة مفاجئة وعاد الزواج فجأةً إلى وضعه الصحيح، أو على الأقلّ أُنقذ. ومن خلال نقصه سمح السيد ستون لكليهما أن يكتشفا ما يُريد كلّ منهما حقّاً، هي أرادت طفلاً راشداً وهو أراد أمّاً حيويّةً شابةً وفاتنة.

لم تتعلّم السيدة ستون كيف تمارس موهبة الصدق مع نفسها إلا في السنوات التي تلّت استقالتها من المسرح. وحين كانت

منغمسةً كليّاً في عملها كانت بالضرورة أقلّ تقييماً لتصرّفاتها، وفي ذات مناسبة قامت بفعل شنيع من دون أن تجرؤ على أن تعرف لماذا قامت به. كان ذلك قبل خمس عشرة سنة وهي تتجول في البلد كما فعلت بطلة شيكسبير روزاليند، قام بدور أورلاند ممثل شاب كانت طلعته البهيّة وأسلوبه الغنائي ينافسان بخطورة مواهبها هي، وفي مشهد ضمّها معاً كانت أحياناً تشعر بانحراف اهتمام الجمهور عنها مما كان يزيد في إثارة حفيظتها. ولكن كان عليها أن تتظاهر بأنّها مسرورة لنجاحه في دوره وللملاحظات الهاذية من الصحفيات اللواتي كنّ يُعلّقن خلسة على شدّة ملائمة أزياء الدراما الإليزابيثيّة المُلهمة عليه. وازداد توتّرها باطراد، إلى أن كانت فترة صباح في مدينة توليدو حين انتاب السيدة ستون نوع من الانقباض حين مرّت من أمام غرفة ملابسه ورأته جالساً أمام المرآة مرتدياً ثوباً ضيّقاً بلون التفاح الأخضر، فدخلت غرفة الملابس وصفقت الباب وأوصدته. وجّه إليها نظرة مجفلةً من خلال المرآة فقطعت عليه تأمّله النرجسي، وكانت نظرتها أكثر إجفالاً من نظرته، لأنّها لم تكن لديها فكرة عن هدف تدخّلها. هل كانت تنوي أن تنفجر في نوبةٍ من الإهانة الهستريةّ؟ لعلّ ذعرها من أن يكون هذا هو قصدها هو الذي أوحى أليها بالمنفذ الوحيد الآخر الذي خطر لها لإطلاق مشارعها؛ أي أن تعانقه بقوّة، وهو ما فعلته على الفور، كعناق رجلٍ لامرأة، استسلم هو له بطريقةٍ توحي بانعكاس الأجناس ـ على الرغم من أنّها في آخر المطاف، في اللحظة الضرورية من العناق انتقلَت إلى وضع المرأة المستسلم الأكثر طبيعية، ونجح هو في تبلّس دور (وقد أحسنَ أداءه) المُعتدي. وتأخّر موعد رفع الستار التالي خمس عشرة دقيقة لأنّه لم يأت

الجواب من غرفة ملابس النجم. ولكن بعد مرور ليلة أو اثنتين، وحين حاول هذا الأورلاندو أن يردّ الزيارة بعيداً عن المسرح قالت له، من دون أن تستدير عن المرآة في غرفة ملابسها "أعتقد أنّ اللوم في ما حدث يوم السبت الماضي يقعُ على نقاط البنزدرين التي تناولتها مع قهوتي. عن إذنك، يجب أن أسرع في تبديل ملابسي".

كان للحادثة أثرٌ مفيدٌ واحد، فلم تعد مصدر قلق لها، لذا سيطرت عليه على خشبة المسرح، طامسةً إياه في ظلّ براعتها الفائقة بشجاعة صقر ينقضُّ على حيوان عشبي صغير عاجز. وأثناء الاحتفال بعيد الميلاد في مدينة دينفر أهدته ألبوماً للملصقات ثميناً مغلّفاً بالجلد ومنقوشاً على غلافه بحروف بارزةٍ فضيّة عبارة "ملاحظات هاذية". كانت هدية تنمُّ عن ضغينةٍ مُبيّتةٍ، لأنّه منذ ذلك الصباح في توليدو، أصبح اسمه لا يُذكر في الصحف إلاّ لماماً. بعد ذلك بوقت ليس بالطويل أودع دفتر ملاحظاته رسالةً تقول "إنّ نظام النجوميّة في المسرح خنق الموهبة الشابة...".

كانت حادثة التوليدو تلمعُ وسط السماء الزرقاء؛ كانت حدثاً نادراً لم يترك أي أثرٍ في حياتها المهنيّة. وقد حرصت على استبدال ذلك الأورلاندو بآخر يرتدي ثوباً من الجلد الخمري والحرير ذي اللون الأخضر التفاحيّ أقلّ لفتاً للنظر، وبانتهاء الجولة عادت إلى السيد ستون مع شعورٍ خاصٍ بالامتنان، كطفلٍ يستيقظ من حلم مخيفً ليتعلّق بعنق أمه. إنّها لم تول خسّةً سلوكها مع الممثّل الشاب أي اهتمام مباشر: لم يخطر لها قط أنها تصرّفت مثل طائرٍ نهّاب ضخم، ومع ذلك كان في داخلها شيءٌ تراجع منقبضاً من فعلتها وصدم بها. كانت بحاجة إلى السيد ستون ليطمئنها إلى أنّ لا شيء مريعاً قد حصل. أخبرته عن حادثة

غرفة الملابس، وفي تلك الليلة قال لها "أعرف أنّي لم أمارس الجنس معك أبداً بشكلٍ مُرض حقّاً"، إذ لا شك في أنّ الناحية الجنسية من الحادثة هي ما أثّر فيه، وليس المسألة الأخلاقية الأكثر أهمية بكثير. ومنحها السيد ستون غفرانه بشأن الحادثة الشهوانيّة فقط، لكنها تظاهرت، معه، بأنّ هذا هو كل ما عليه أن يفهمه ويغفره، وهي، بدورها، أكّدت له، وبقدر كبير من الحقيقة، أنّ علاقتهما كانت وما زالت كما رغبتها، وأنّ الحادثة الشبيهة بالبرق لم تنتج من أي غيوم استياء مستتر. وفي الليلة التي تلت، كانت هي التي استمدّت راحتها منه، لأنّ دور الطفل والأم يكون متداخلاً بشكل غريب حين يغدو أساس زواج ناضج.

كان زواج آل ستون ممسوساً بوحشةٍ غامضة. والعلاقات البديلة كلّها تكون ممسوسة بشيء مماثل. فالأصابع المشتاقة تقبض على سراب الشيء، والشفاه النهمة تنضغطُ على فم وهميّ؟ الأم تتمدّد في قبرها وطفلها لم يولد بعد. ولكن في عَملية التبديل نفسها ثمّة لمسة معيّنة من الشفقة. ربّما لو لم يكسرا نمط مسيرة حياتهما في نيويورك، لبقيت تلك الشفقة على الهامش الضيّق للوعي، لا شكل لها كطفل لم تلده، ولكن مع انكسار المنظومة الذي تواقت مع الرحلة البحرية الطويلة، والانفصال عن كلّ المُلهيات الواقية للمسارح والمكاتب والمجتمع، أصبح عدم الكفاية المُهيمن، وتلك الوحشة، جليّة جلاء الأنفاس التي تتحوّل بخاراً. لقد أصبحت ضباباً كثيفاً يطفو بينهما يتبادلان من خلاله ابتساماتهما الناكرة بقوّة وأحاديثهما الخفيفة المُطمئنة.

كانا ينويان أن يقوما برحلة استجمام حول العالم، وكانت حجوزات السفينة والطائرة والفندق قد أُنجِزت مسبقاً. ولكن لدى

عودتهما ذات ليلة من المسرح في باريس، وقد دخل السيد ستون إلى الحمام لينظّف أسنانه. قطع صوت حفيف الفرشاة الممل سلسلة من حشرجات اختناق لا إنسانيّة خشنة. اندفعت السيدة ستون إلى الحمّام لتجد جسده مُدلّى إلى الأرض. واليدان القصيرتان المكتنزتان متشبّثتان بحافّة حوض المغسلة وكأنّ هذا الدعم من البورسلين الأبيض كان السند الباقي الوحيد لحالةٍ من الوجود. ونجا من تلك الصدمة، كما نجا في مرّاتٍ سابقة، لكنها أثبتت لهما أنّ الترحال في الوقت الحاضر مجهدٌ جدّاً وأنّه من الأفضل الاستقرار في مكان ما لبعض الوقت. وبعد أن ارتاح السيد ستون بضعة أيام في مصحّ باريسيّ طارا جنوباً إلى روما.

أثناء تواجدهما في روما خفّت حدّة مرض السيد ستون بشكل مشجّع، وأثناء هذا التحسّن رافقته ذات يوم إلى أشهر خيّاط في العالم في الكورسو ديناليا ليأخذ مقاسه وصنع له بعض الملابس الجديدة، ليس لأنّه كان يحتاجها أو يريدها، بل كدلالة ثقة في أنّه سيعيشُ ويرتديها.

***

الآن حين عادت مع باولو إلى ذاك الخياط نفسه راحت السيدة ستون تتذكّر كيف تبادلت مع زوجها الابتسام عبر المكتب المُشمس بينما كانت مقاسات جسم ستون الممتلئ بشكل يدعو إلى السخرية تؤخذ. واختاروا له بذلة ناعمة النسيج بلونٍ رمادي. والآن كان الخيّاط نفسه يعدُّ قطعةً من القماش نفسه في إحدى غرفة ويفرشها على الطاولة المكشوفة العارية.

قال للسيدة ستون "هيا، تحسّسيها"

قالت السيدة ستون "لا. أعرفُ ملمسها..."

على الفور استدارت عن الطاولة وتظاهرت بأنّها ترى للمرّة الأولى أصيصاً به شجيرة أزاليا صحراوية بيضاء موضوعة عند مقعد النافذة: وذلك لأنّ السيد ستون أصيب بآخر نوبة ألم واختناق وهو على متن طائرةٍ كانت تقلّهما إلى أثينا حين كان يرتدي بذلته الرمادية الناعمة. والآن تذكّرت، وهي تُدير ظهرها لباولو وللخيّاط، ذلك الفراق الرهيب بعيداً عن الأرض وسط عاصفةٍ من الضوء النحاسي وصوت ميكانيكي. تذكّرت أنها نظرت عبر ممر الطائرة الضيق ورأت الجسد الصغير الممتلئ لزوجها وقد أصبح متيبّساً بشكل غير طبيعي، وكيف كانت أصابع يديه تتشبّث بجانبي المقعد وكأنهما، هما فقط، يمنعان وقوعه من تلك المسافة الزرقاء المُدوّخة إلى البحر الأيوني الذي يحلّقان فوقه. تذكّرت كيف مالت قليلاً إلى الأمام بانحراف، وهي تقول له بتردّد رقيق "توم، هل تتألّم كثيراً؟"، وتذكّرت الاهتزاز المشدود السريع لرأسه سلباً، وأدركت أنّه يكذب. تذكّرت أنّها نظرت إلى الشريط البلاتيني الصغير الذي كان يحيط برسغها ويشير إلى ذروة النهار ومعرفتها المفاجئة للحقيقة البشعة القائلة بأنّ ثلاث ساعات ستمرُّ قبل أن يحطّ بهما هذا الطائر الخالي من الروح المُحلّق بشكل لا يصدّق قاطعاً الفضاء، على الأرض ثانية. وكانت عندئذٍ قد مالت إلى الجهة الأخرى ونظرت إلى ما تحتهما، عبر الزجاج المقوّس وعبر الفضاء المُذهل إلى البحر المترامي والمذهل أكثر من الفضاء، ولاحظت (وعندها فقط صرخت) أنّه ليس بعيداً جداً، قليلاً إلى الشمال من خط اتجاههم، كانت هناك جزيرة صغيرة عليها أبنية بيضاء.

ووجهت صراخها إلى المضيفة:

"أخبري الربان أنّه يجب أن يهبط! إنّ زوجي مريض!"

حتّى في ذلك الوقت استدار السيد ستون إليها وابتسم منكراً وقال لها شيئاً ضاع في ضجيج الطائرة الميكانيكي الهادر. ثم وقفت بينها وبين زوجها للحظات، وهي تميلُ عليه في جزعٍ، حتّى إنّ السيدة ستون لم تستطع أن ترى إلاّ قمة رأسه الضخمَ، ومن خلال ذلك المجال الفاصل الضيّق للرؤية، وكأنّ الفتاة هبطت بينهما بسرعةٍ رهيبةٍ وبراعة ومدّت يدها من تحت بذلته الرمادية وانتزعت منه قلبه. لقد أسلم السيد ستون الروح. ولو لم تقف المضيفة الحسناء والهادئة ذات الزيّ الرمادي بينهما وتقطع بذلك الخيط الذي كان يدعمُ التحديق المشدود في ما بينهمان لشعرت السيدة ستون أنّه ربّما لم يحصل، أي الموت، لذا حين استدارت الفتاة مرّة أخرى نحوها قائلةً لقد غاب زوجك عن الوعي "قفزت عن مقعدها وضربت يديها بقوة على صدر الفتاة وبطنها، وهي تدفعها بعيداً بعنفٍ وتصرخ في وجهها بعبارات مضطربة حتّى رمت بها تقريباً إلى باب مقصوة الربّان ثم استدارت هي، السيدة ستون، لتعيد زوجها إلى العالم الذي انتزعته هذه الدخيلة منه. لكنها عرفت على الفور من الطريقة التي كان الجسد الصغير الممتلئ يتهاوى بها داخل بذلته الجوخ الناعمة الرمادية، أنّ ما غادره لم يعد في الإمكان استرداده الآن. صار ما يلفّه الآن هو الهواء الخاوي بشكل عجيب. ثم تحوّلت كلّها إلى صوتٍ صارخٍ وذراعين متوسّلتين، تحاول أن تقتحم طريقها متجاوزةً المضيفة الشابة القوية إلى مقصورة الريّان، إلى معدن ذلك الباب الرمادي اللمّاع والمتغضّن، صارخةً، جزيرة، جزيرة، جزيرة! وأخيراً، لأنّ الفتاة والشاب ذا البذلة الرماديّة الذي ظهر من المقصورة الأمامية لم يفهما ماذا تعني كلمة

جزيرة، ارتمت على مقعد خال بالقرب من مقدم الطائرة وراحت تضرب بذراعيها كجناحين على زجاج النافذة المطلّة على البحر وعلى جزء من الجزيرة الخضراء التي باتت تنزلقُ الآن بسكون من تحتهم وإلى الخلف منهم.

قالا لها برقّة "مدام، لا يمكن الهبوط على تلك الجزيرة..."

***

لم يكتف باولو بطلب تفصيل بذلة واحدة من القماس الناعم الرمادي، وإنّما اثنتين أخريين، بذلة جوخ زرقاء اللون للسهرة وبذلة من حرير شانتونغ بلون اللؤلؤ الأصفر.

لم ترَ السيدة ستون في حياتها قدراً من الفرح، حتّى في طفل، كالذي أظهره وهو عند الخيّاط. كان يتكلّم ورأسه مرفوع عالياً وإلى الخلف حتّى بات يخشى على رقبته أن تنقصف وكان يومئ باستمرار بيد مرفوعة أمامه وكأنّها تقبض بقوةٍ على كأس.

زَعَقَ في وجه الخياط وهو يأخذ مقاييس جسدة الشاب الرائع "Strette, Strette, Strette" (اجعله ضيّقاً، ضيّقاً ضيّقاً).

وبينما هذا الضجيج والإحصاء يدوران انسحبت السيدة ستون إلى زاوية منعزلة من الغرفة، خارج ضوء الشمس الفاضح، واستسلمت ليس للذكرى من جديد بل لعملية تأمّل أشدّ بثّاً للرعب. حاولت أن تفهم كيف وصلت إلى ما هي عليه. لعلّ هناك استمرارية ما منطقيّة ولكن سرّية بين حياتها الماضية في أميركا وهذه التتمّة الشاذّة لها التي تتجلّى الآن في روما، وإذا ما بقيت حياتها الماضية هنا مدّةً كافية، في عزلة تأمّليّة، فإنّ خطّ التطوّر المقبول قد يتبدّى لها. ولا شكّ في أنّه في موقعٍ ما من مسيرتها الطويلة،

من فترة طفولتها الرقيقة العاديّة جدّاً في فيرجينيا وتلك التمثيليات المدرسية التي أدّت إلى اختيارها لمهنتها، ومن ثم خلال انشغالها التامّ في تلك المهنة وعبر سنين من الزواج التقليدي، لا بدّ أنّه في موقع ما من تلك المسيرة السريعة جدّاً، ولكن المنتظمة، كانت هناك علامة مميّزة، لعلّها مبهمة؛ إشارةً ما غير واضحة تشير إلى باولو وإلى هذا الربيع في روما. لقد ساهم مختلف أنواع الأعداد الصحيحة والرموز في تكوين المعادلة الطويلة. رتّبت في تسلسلها المؤقّت على طول الصفحة، لكنّ المعادلة توقّفت من دون محصّلة. وليس دقيقاً، طبعاً، القول إنّها توقّفت. لقد كانت، بشكل ما، مستمرّة، ولو أنّها هي التي ماتت على متن الطائرة المتوجّهة إلى أثينا، مثلاً لبُترت المعادلة بطريقة أدقّ، ولبقيت مع ذلك بلا محصّلة. ثمّة شيء توقّف بحقّ، كلّ ذلك الجزء من حياتها الذي كوّن المجموعة المنتظمة من الأرقام الصحيحة والرموز؛ كل هذا انتهى، ولكن هي كانت ما تزال مستمرّة بشكل ما، ما تزال حيّة، ما تزال تراقب وتشعر وتتعرّف كالسابق، بل بحيوية أكثر، الآن، مما كانت في الماضي حين حدثت لها تلك الفوضى الشعورية، التي تتملّكها الآن، مرّتين فقط، في منامة الكلّية وفي غرفة الملابس في التوليدو، ولم يكن ذلك بالضبط، ولكن...

***

رفعت السيدة ستون بصرها بسرعةٍ عن قفّازيها الأبيضين. ابتعد صوتا الخيّاط وباولو إلى غرفة عرضٍ أنأى، ولكن لم يكن ابتعاد ذلك الصوت ما لفت انتباهها بل شيءٌ دخيلٌ آخر. فقد سمعت في الغرفة نقراً معدنياً واضحاً. للوهلة الأولى لم تعرف مصدره، ومن ثم لمحت بسرعةٍ قامة شابٍّ واقفٍ خارج زجاج النافذة المقابلة

لغرفة المكتب. لم يبد عليه أنّه ينظر إلى النافذة ولكن إلى أسفل باتجاه اليد الممدودة أمامه التي كان ينقرُ بها على الزجاج بشيءٍ معنيّ. كان الوجه شديد الميل بحيث كان يمكن أن تتعرّف عليه كوجه رأته بغموض في مناسبات حديثة كثيرة وهي تجوب شوارع المدينة، لكنّ وضع القامة السرّيّ والجريء بشكل غريب جعلها تعرف على الفور أنّه هو. كانت قامة شخص بارز بين حشد يعمد إلى جذب انتباه شخص بعينه من دون أن تخطئ إشارته إلى شخص آخر. وعلى الرغم من أنّ جوّ بعد الظهيرة كان دافئاً، إلاّ أنّ ياقة معطفه الخفيف كانت مرفوعة وتحيط بعنقه وقد انخفض وجهه لينغمر في ظلّها، وبينما تابع نقره، الضعيف، الواهن، كان يُلقي نظرات مختلسة ماكرة إلى كلا جهتي الممرّ المُشمس. ثم وبحركة لا تكاد تلاحظ باعد ما بين طرفيّ واجهة معطفه المحلول الأزرار مسافة إنشين، ووقعت عينا السيدة ستون المشدوهتان على وميض العري الفاضح الذي عرضته الحركة الصغيرة.

نهضت من فورها عن الكرسي واستدارت نحو صفّ الكبائن الزجاجيّة في الجدار الخلفي. وظلّت على وضعها ذاك بضع لحظات. وتوقّف الربت ورأت في الانعكاس الضعيف على زجاج الكابين القامة تبتعد عن النافذة. ثم نادت على الرجلين الموجودين في الغرفة الأبعد؛ نادتهما بنبرة رعب، ولكن حين استجاب باولو لندائها خجلت أن تبوح له بما حدث لكنها اكتفت بالإشارة إلى أنّ عليهما أن يسرعا لتلبية دعوة إلى العشاء.

# الجزء الثالث

# الانجراف

حين كانت السيدة ستون في العاشرة انفصل والداها وأرسلاها إلى مدرسة داخلية في ميريلاند. في ذلك الوقت لم تكن تلعب كثيراً مع الأطفال، بل كانت راشدة جدّاً وصعبة الإرضاء. وأثارت إعجاب أساتذتها بكياستها الجديرة بسيّدة، وبخصلات شعرها الذهبية وبعينيها الكبيرتين البنفسجيتين. كانت أشبه برسم لأميرة صغيرةٍ حزينةٍ منها بطفلة حقيقية. وبيديها الموضوعيتين في حجرها وكاحليها المتصالبتين بأناقة، كانت تبدو وكأنّها تقف موديلاً لرسّام فيكتوري رومانسي؛ كانت تزمُّ شفتيها بشدّة معاً وتلقي حولها نظرة سريعة من دون أن تدير رأسها، بحيث إنّها كانت أحياناً، على الرغم من جمالها الخرافي، تبدو باردة ماكرة. ولم تكن الفتيات الصغيرات الأخريات يعاملنها بلطف؛ كثير منهنّ كنّ يخترعن ألقاباً صغيرة سيئة لها، كقولهن "الآنسة مغرورة" أو "المدلّلة". هذا العداء لم يبدُ أنّه يدهش الصغيرة. ويمكن الاعتقاد بأنّ هذا بالضبط ما علّمتها تجربتها الماضية، على قلّتها، أن تتوقّعه من

الرفاق في العالم البعيد عن البيت. بعد فترة من الوقت رفعت خصلات شعرها الذهبي وشبكتها عالياً، وكأنّما بعد أن فكّرت في الأمر مليّاً، وطرحت عنها وقفاتها المتأنّقة وبدأت تبدو وتتصرّف كبقيّة الأطفال. لكنها كانت دائماً وكأنّها ناضجة صغيرة تقلّد طفلاً أكثر منها فتاة ناضجة فعلاً. وكان جمالها لا يُصدّق. ولم يكن إلا لمرور زمنٍ طويل أن يغيّره.

بحلول منتصف شتاء السنة الأولى لوجودها في المدرسة كانت كارين قد وصلت إلى النقيض المباشر لسلوكها؛ تحولّت إلى غلاميّة وتفوّقت في ألعاب التنافس والمباريات الرياضية. وكان في مرج المدرسة مصطبة شديدة الانحدار يصعب تسلّقها حين تكون مغطّاة بالجليد أو يحفُّ بها الثلج. في تلك الأوقات كانت الفتيات الصغيرات الأكثر مشاكسة، أمثال مارين، يلعبن عادةً لعبة اسمها "ملك فوق الجبل". في تلك اللعبة، وكان غير مسموح بلعبها ومنعتها المدرسة في ما بعد، تتّخذ الطفلة مركزها فوق قمّة المصطبة وتظلّ تتمتّع بلقب "ملك فوق الجبل" طالما أنّها تمنع أي فتاة أخرى من الارتقاء إلى مستواها. كانت تلك واحدةً من الألعاب برزت فيها شخصية كارين الجديدة إلى حد كبير. كانت المسيطر الأكثر تماسكاً فوق القلعة. وكانت أيضاً أكثر المحاصرات ضراوة. وتنتهي اللعبة عادةً بعراك ينتج منه ثياب ممزّقة، ورضوض ودموع، بينما تظلّ كارين ثابتة القدم بانتصار فوق قمة المنحدر الزلق.

"ملك فوق الجبل" هذه اللعبة لم تنبذها بمضي مرحلة الطفولة. فقد طرأ طبعاً على أساليبها الراشدة للعبها ثورة ملحوظة تماماً، وحلّ محلّ الصراخ، والدفع، والرفس والخدش تكتيك

متحضّر ظاهرياً. لكنّ وصول السيدة ستون إلى القمة في مهنتها، والعناد البطولي الذي حافظت به على مركزها في وجه كل العناصر أو الأشخاص الذين حاصروها، مع استثناء واحد هو الزمن، لم يفشلا في أن يتركا انطباعاً لدى السيدة ستون بأنّهما يوازيان اللعبة التي كانت تلعبها وهي طفلة على المصطبة. وفي لحظات شاردة معيّنة، لحظات تتلقّى فيها النفس الراشدة المُهذّبة بسرعة وخفّة كلصّين يمرّران بينهما ساعةً مسروقةً، بثّاً من كيانها الطبيعي الأصلي، كانت تقاطع همسها الداخلي بهذه الكلمات المُنتشية: ما زلت الملك المسيطر على الجبل!

احتلّت السياسة محلّ عنف الطفولة. كانت جولات السيدة ستون العُظمى في البلاد كنجمة مسرح أشبه بتحرّك حملةٍ لصالح مكتب الحكومة. رجالُ السياسة يتّصفون عادةً بقدرات خاصة على حفظ الأسماء وتذكّر الوجوه. وكذا كانت السيدة ستون؛ كانت تعرفُ تحديداً مئات الناس وتناديهم بأسمائهم الأولى على الرغم من أنّهم مجرّد معارف. ففي كل مدينة خلال جولتها الكبرى كانت تعرف بالضبط كلّ ما يمكن معرفته حول كلّ صاحب عمود في صحيفة أو ناقد؛ أشياء مثل قصور في النظر أو السمع مما يجعل من المستحسن زرعهم أمام المنزل، وتفضيلهم لنوع معيّن من الشراب، وتفاهاتهم الصغيرة الخاصة واهتماماتهم. وإذا ما ازدادوا وزناً منذ أن شاهدتهم آخر مرة تقول "أوه، يا إلهي كم نحفت"، وإذا كان أحدهم يشعر بميل سرّي نحو أبناء جنسه، وهو أمرٌ لم يكن نادراً، تجد دائماً مبرّراً مستتراً لتعرّفه إلى أحد مرافقيها. لقد كانت متفهّمة ومتسامحة في أمور كثيرةٍ. ولم تكن أبداً ماكرةً ولا حقوداً. كانت في المناسبات كلّها تستخدم الخدعة القديمة في إلقاء

النظرات فيما حوّلها بسرعة كبيرة، من دون أن تُحرّك رأسها، والخدعة الطفولية التي تجعلها تبدو باردةً وخبيثة، استخداماً ممتازاً. لقد رأت وعرفت أشياء كثيرة، وما لم تعرفه هي عرفته سكرتيرتها. كان ملف معلوماتها، الذي لا يعرف حجمه أحدٌ غيرهما، مذهلاً، ببساطة. وكان السؤال الأوّل الذي تطرحه كلّ يوم على هذه العانس هو: عيد ميلاد من اليوم؟ فهناك مفكّرة مخصّصة بأكملها لتدوين تواريخ أعياد ميلاد تغطّي عدداً هائلاً من الأسخاص، من أرملة رئيس جمهورية سابق إلى كاتب قصص عاطفيّة في صحيفة "تولسا غازيت" فتسأل، عيد ميلاد من اليوم، أو من مات اليوم؟ كلا السؤالين تسألهما بالضبط بنبرة الصوت نفسها الخالية من الاهتمام المتعاطف، العلمي تقريباً. كان هناك دائماً دفق لا ينقطع من رسائل التهنئة ورسائل العزاء، ولم تكن فلورا، إلهة الزهور، أكثر سخاءً في نثر الأزهار. كان صباح يومين من أيام الأسبوع مكرّسين لتلبية طلبات المستشفى وإذا أصيب أكثر أعضاء الفرقة المسرحية تواضعاً بوعكة صحيّة كان في إمكانه الاعتماد على زيارة السيدة ستون له سواء أرغب أم لم يرغب. ويجب الاعتراف بأنّه لم يكن هناك ما يبهج كثيراً في زياراتها تلك للمستشفيات. كانت تنظر إلى المرضى بعينٍ قاسيةٍ كعيون الطيور وكانت نبرات صوتها المتعاطفة تصدر عن حنجرتها. ولم يكن ضحايا الأمراض المستعصية يؤثّرون فيها بأعمق من أولئك الذين كانوا يبرؤون من عملية استئصال اللوزتين. وكلّ ما فعلته لتخطب ودّ زملائها في المهنة، لتخلق أسطورة السيدة ستون باعتبارها نموذجاً للولاء والطيبة، كان صادراً عن العقل ولا عن القلب. والنتيجة هي أنّ عدداً هائلاً من الناس راح يقول "إنّ السيدة ستون

امرأةٌ رائعة"، ربّما بنبرة الصوت المتبلّدة نفسها التي كانت تطلب بها من سكرتيرتها قائلة "من مات اليوم، أو عيد ميلاد من اليوم؟".

لا أحد كان مُدركاً للطابع الآلي لحركاتها مثل السيدة ستون نفسها. وكان ذلك شيئاً لم تدنه في نفسها ولا تغاضت عنه. كانت تعلم أنّها تحب شيئين، توم ستون وعملها كممثّلة مسرحية، وقرّرت، ربّما عن تعقّل تام، أنّه لا يهمُّ كثيراً إن أتى إظهارها للاهتمام بالآخرين من القلب أم من العقل. المهم أنّه مع مرور الزمن بدأت لا شفافيّة عينيها الشبيهتين بعينيّ طائر والصوت الذي كان يُثير انفعالاً غير محسوس يتبدّيان بوضوح أشدّ من خلال الانهيار التدريجي لتحصين الجمال الذي ساعد كثيراً في جعلها "ملك الجبل". كانت السيدة ستون تعلم؛ لم تغفل عن اكتشاف هذا التآكل الزاحف وبذلت كلّ ما وسعها لتعوّض عنه بزيادة ممارسة المهارة.

كانت السيدة ستون بمثابة ما يُسمّى بـ"دراسة سريعة"؛ كانت في الحقيقة خجلةً بشكل ما من السرعة الاستثنائية التي كانت تحفظ بها حواراتها؛ إذ من المعتاد في مجال العمل المسرحي أن يأخذ النجوم المهمّون وقتهم في استظهار أدوارهم. إنّ الطموح والقلق لم يسمحا للسيدة ستون أن تأخذ وقتها في إنجاز أي شيء يتعلّق بمهنتها. كانت غالباً ما تتعرّف إلى "جوانبها" بعد ثلاث أو أربع بروفات. كان يزعجها كثيراً أن تعتقد أنّ هذه السرعة يمكن أن تؤوّل كدلالة على فعاليّة وليس على فنّ، لهذا السبب كانت غالباً ما تدّعي التعلثم في أسطرٍ تحفظها عن ظهر قلب. وكانت هناك أيضاً هذه المزيّة، فخلف غطاء زائف من عدم الكفاءة

استطاعت السيدة ستون أن تبقي عينيها الحادّة مركّزة على أعضاء آخرين من المجموعة؛ يهدّدون بخسف نورها لدى افتتاح المسرحيّة.

طبعاً هذه الأشياء لا تستطيع أن تفلت من التقصّي إلا لفترة محدودةٍ من الزمن؛ فعلى الرغم من جهودها لإخفاء فعاليتها، إلا أنّها أصبحت أسطوريّة في نجال المسرح. وأخيراً أدرك كلّ من عرفها ما كانت تسعى إليه؛ كانت تسعى لتكون "ملك الجبل"، وثابرت على ذلك. فطالما تابعت سيطرتها على جمالها، وكل شيء على ما يرام. ولكن حين ذوى ذلك الجمال بدأ الوميض الواشي للأسلوب الآلي المحفور بدقّةٍ يتّضح. ثم بدأت الملاحظات أنّ "السيدة ستون أبدعت لكنّها أساءت تمثيل دور..." تُسمع كقرقعة موت مستقبل مهنةٍ لم تتلاءم أبداً مع شيء ما في داخلها. لذا كان هناك شيء من الغموض في العنف الذي راحت تنجز به مستقبلها المهني. ولكن كان هناك أيضاً لغزٌ في العنف اللاّ أنثويّ الذي لعبت به من طفولتها البعيدة لعبة "ملك فوق الجبل". ولكن لعلّ هناك العنصر الغامض نفسه في الحاجات الإنسانية المُلحّة كلّها؛ فمعرفة علّة شيءٍ ما، أو أي شيء، ليست معرفة شائعة...

تلك الأسماء كلّها التي تذكّرتها، الأسماء والوجوه ومواصفات الناس الذين يمكن أن يكونوا ذوي فائدة ممكنة لها، كانوا أشبه بأغراض مخزّنة على رفوفٍ تحبط بجدران غرفة هائلة فارغة. هذا الفراغ لم يكن فراغ شخص تافه. كانت السيدة ستون تعرف نوع ذلك الفراغ، وكان الجميع يعرفونه؛ إنّه ذلك النوع من الفراغ الذي سمح لعدد كبير من معارفها أن يعيشوا الحياة التي عاشوها من دون إدراك ظاهرٍ لأنّهم إنّما يشاركون في طقوس الخواء

الشاسعة. وكانت السيدة ستون تعرف تلك الطقوس، فقد شاركت هي نفسها فيها؛ ارتادت الحفلات وانغمست في قليل من اللهو، وتجوّلت في الدائرة الهائلة الفارغة. لكن السيدة ستون ألقت نظرة إلى الداخل من حدود تلك الدائرة ورأت الخواء الموجود فيها؛ رأت الفراغ؛ وجدتها فارغة. لكنّ السيدة ستون كانت دائماً مشغولةً، دائمة الانشغال بأمورٍ لا يكفي إتمامها حياة واحدة. لذا، فكما تمنع القوّة النابذة مادةً تدور من السقوط خارج مدارها إلى الداخل، كذلك ابتعدت السيدة ستون مدّةً طويلةً عن الفراغ الذي كانت تدور فيه.

حين تركت المسرح ورحلت عن أميركا مع زوجها المُحتضر، وهي تحمل جسداً اختار ذلك الوقت ليعلن أنّه لم يعد مؤهّلاً لأداء تلك الخدمة للحياة التي لم تؤدّ أبداً، وكانت السيدة ستون تعرف، في قرارتها، أنّها تتوجّه بشجاعة إلى الداخل خارجةً من المدار الذي تراخى الآن؛ استدارت إلى الداخل وبدأت الآن بالانتقال إلى الفسحة المحاطة بدرب التحليف المشبوب. كانت تعرف ذلك في قلبها من دون وعي منها. ولمّا كانت شخصيةً تتمتّع بجراءةٍ متميّزة تحرّكت نحو الداخل وعيناها البنفسجيتان مفتوحتان على آخرهما، وهي تسأل نفسها، في قرارتها، عمّا ستجده أثناء تحرّكها؟ هل هو ببساطة الفراغ، أم هل سيكون مملوءاً بقوّة غير مادية قد تنقذها بقدرة ما يمكن أن تدمّرها؟

وفي بعد ظهيرة يوم في أواخر الربيع وقعت السيدة ستون على اكتشافٍ مذهلٍ مفاده أنّ عاصفةً هوجاء ضربت مخازن عقلها وبعثرت كلّ تلك الأسماء والوجوه في الجهات الأربع وزوايا الدنيا السبع. كانت قد ترجّلت لتوّها من سيارتها عند رصيف في فيا

فينيتو وتستعدّ لولوج دكان الخياط حين ناداها صوت امرأةٍ باسم كارين. في اللحظة التالية قبضت على ذراعها امرأة لم تتذكّر إلا بشكلٍ غامضٍ أنّها رأتها من قبل. وغطّت على فشلها بالتذكّر بحديثٍ صغيرٍ سريع. ولكن مرّت بضع دقائق قبل أن تكشف لها أنّها لم تكن مجرّد إحدى معارفها؛ إنّها تنتمي إلى تلك الحلقة الحميمة من الأصدقاء الذين كان آل ستون يعتبرونهم "مجموعتهما". إنّها جوليا ماكلين ورفيقها، الرجل الضخم الشبيه بالعلجوم المتأرجح بلا ارتياح من خلف سيجارة، الذي كان شريك عمل سابق؛ رجل كان على الدوام "متورّطاً" في أعمال السيدة ستون المسرحية. وهي لم تلاحظهما؛ مرّت بضع دقائق لم تتبيّن خلالها على الإطلاق من يكونان. وحين تذكّرت هول تلك الزلّة فقدت سيطرتها على نفسها، وانبجست الدموع من عينيها، وهمهمت "أوه، جوليا" متذكّرة أخيراً اسم المرأة الضئيلة المتمّلية. "جوليا، لديّ أمرٌ أريد أن أحدّثك بشأنه"، ثم تنحّت السيدة ستون بالمرأة، بعيداً عن زوجها، ولسببٍ لم تدرك كنهه أخذت تخترع كذبةً عن نفسها. قالت للمرأة إنّها ابتليت بورمٍ خبيث، وإنّها أخضعت لعملية استئصال له، لكنّ الورم عاد ينمو، وإنها لن تعيش طويلاً. وحين سألتها المرأة أين، أو ربّما فقط عندما خُيّل للسيدة ستون أنّها سألتها أين، أخبرتها بأنّ الورم موجود في الرحم. قالت لها إنّ الرحم قد استؤصل لكنّ الورم امتدّ كثيراً وانتقل بالانبثاث metastsisi إلى أعضاء أخرى، وبينما هي تخترع هذه الكذبة عن نفسها شعرت السيدة ستون بما يشبه البهجة، بإحساسٍ بحريةٍ وحشيةٍ لم تعرفه إلا أحياناً خلال لحظات وهي واقفة على الخشبة حين كانت براعتها الفنيّة تطغى، دفعةً

واحدة، على صعوبات دور معقّد. وقد استمرّ الإحساس بالتحرّر حتّى بعد أن غادرت المرأة، وهي تلهث، وبدأت تبكي، في مقهى الرصيف حيث تمّ اللقاء. وهتفت عند الفراق "لا تتصلي بي؛ لا تحاولي أن تريني. أعلن أنّك ستفهمين أنّي لا أستطيع استقبال الناس!".

بدل أن تدخل محلّ الخيّاط، مما كان سيكون شيئاً غير مناسب قليلاً بعد هذه القصة، عادت إلى سيارتها وطلبت من سائقها أن يتجوّل بها في فيلا بورغيز لبعض الوقت. وراحت تُردّد لنفسها مرةً بعد مرة" تصورّي، لم أعرفهما! ها! تصورّي، إنّني حتّى لم أعرفهما..."

إذ إنّ هذا الجانب من الحادثة الغريبة هو الذي أثّر فيها، للوهلة الأولى، بما أنه الأكثر أهمية. ولم يخطر لها إلا لاحقاً، حين التفت السائق إليها ليسألها إن كانت قد اكتفت بالتجوال في الحديقة العامة، أنّه من المُلفت للنظر أيضاً كيف أنّها، وكأنما من المجهول، قبضت على تلك الكذبة الرائعة عن نفسها، وقالت للسائق "كلا، تابع السير"، وأسندت ظهرها إلى الوسائد الجلدية، وبينما السيارة تتلوّى بلا هدف بين طرقات فيلا بورغيز الملتوية انتاب السيدة ستون إحساس بالوصول. هذا هو المركز. هذا ما تحيط به الدوائر المسعورة. هذا هو الفراغ...

***

وكشأن كلّ الذين يملكون جمالاً خارقاً، طالما ضمرت السيدة ستون فكرةً رومانسية تقول إنّها ستموت باكراً. في طفولتها توقّعت أن تموت قبل أن تبلغ الثلاثين. بعد ذلك وسعت المجال إلى الخامسة والأربعين أو الخمسين، أما الآن فقد تجاوزت هذين

الحدّين المؤقّتين، وأصبحت فكرة الموت المبكّر لا تدلُّ إلا على غرور لا ينوي القدر أن يشبعه. ولا يمكن القول إنّها تمنّت الموت حقّاً، يمكن القول فقط إنّها كانت فزعة من الاتجاه، أو فقدان الاتجاه، الذي كانت حياتها تنحوه الآن. ولو أنّها علمت أنها في الحقيقة تعاني من مثل تلك الحالة المرضية كالتي لفقتها للسيدة ماكلين وسبّبت لها الدهشة؛ مرض لا شفاء منه سيُفضي إلى الموت في وقت مبكّر جدّاً، لكان لهذه المعرفة أثر مهدّئ. لكنّ القضية لم تكن كذلك. فجسمها لم يظهر أيّاً من الأعراض التي تظهر على الكائن الحيّ الذي يوشك أن يتعطّل. فالوهن، وقصور التنفّس، والنبض الشهواني في الشخص المتوسط العمر والتي تدلُّ على موت مبكّر جداً لم تتوفّر في تكوين السيدة ستون. على العكس، فبينما جسدها ينهض من غابة سن اليأس المتشابكة أصبحت تشعر بانبعاث عظيم لازدهار جسدها. كانت نشطة على الدوام من دون أن ينالها التعب. الأميركيون الآخرون يشتكون من الكسل الروماني، لكنّ السيدة ستون لم تلاحظ شيئاً من هذا. كانت تتمنّى لو أنّها لاحظت. ولطالما تمنّت لو أنّها تتمتّع بالتكاسل الجسدي الجدير بأن يوفّر لها قيلولة ممتعة. نعم، من الممكن الاسترخاء. لو تعطي الأوامر لجسدها فيستجيب. ولكن إذا كانت مستلقية وحدها، إذا لم يكن باولو إلى جانبها، فستعاني على الفور من عذابات القلق. ستنهض لتغلق المصاريع أو لتلتقط قطعة من الملابس الداخلية وقعت على قدميها، وبعد إتمام عمل الشيء التافه يبثُّ فيها منظر أغطية السرير البيضاء الموحشة شعوراً بالنفور الحادّ. عادة تجلس بجانب الهاتف، أحياناً تضع يدها على السماعة ولكن نادراً ما ترفعه فعلاً من مكانه. وحتى لو رفعته،

ووضعت إصبعها لتطلب الأرقام الخمسة التي قد تجلب أو لا تجلب الردّ المضني لباولو، وكلمة Pronto (ألو!) الناعسة، فإنّ عزمها سيخور وستعيد اليدُ المتردّدة السماعة إلى مكانها وتعود إلى حجرها أو تشبّث بتكاسل بكأس من الماء أو بقنينة من العطر.

لا شكّ في أنّ المشكلة كانت جزئياً أنّ السيدة ستون قد فشلت بالتزوّد بمؤونة فكريّة تُعينها في الفترة التي تواجهها الآن من حياتها. لقد ظلّت سنوات عديدة لا تهتمّ حقّاً إلا بقراءة مخطوطات المسرحيات وأعمدة المسرح في الصحف. وكانت تستمتع بالموسيقى فقط كخلفيّة لنشاطات مثل الاستحمام وارتداء الملابس. كانت الفترة الطوفانيّة من التاريخ التي عاشتها، من شنّ الحروب والصراع الهائل للأفكار الاجتماعية، لا تعني لها شيئاً كحشدٍ من الوجوه المجهولة تمرُّ بها في الشارع. كان ذلك كلّه مجرّد غشاوة باهتة متبدّلة لا تهمّها إلا إذا حدث ليحفَّ بطتفها أو ليُعيق برهة تقدّمها الحثيث ولكن الغافل تقريباً، مارّاً به ونافذاً فيه. من هذه الحقائق حول السيدة ستون سيُسهّل الافتراض أنّها امرأة غبيّة، ولكن كأغلب الاستنتاجات السريعة والسهلة للشخصية الإنسانيّة، لم يكن ذلك هو الحقيقة. وثمة حالات يسبّب فيها قدر كبير من الطاقة الاذّى للذكاء، وهذا يصحُّ خاصة حين تسخّر هذه الطاقة كلّها، أو كلّها عملياً، لشيء واحد، كهاجس السعي لتحقيق المستقبل. ولو لم يرافق هذا السعي ذكاء حادّ جداً لما نفذت تماماً ببصيرتها بذاك الصفاء الذي لا يرحم، ذلك الصفاء سمح لها أن تعترف لنفسها بأنّ موهبتها هي من الدرجة الثانية وأنّ تاج مستقبلها كان جمالها الفتيّ الذي زال عنها الآن. ويتطلّب الأمر صنفاً معيّناً من الذكاء للتعرّف على مثل تلك الحقيقة القاسية التي تخصُّ

المرء، وأكثر من ذلك لمعايشة هذه المعرفة. الآن باتت تعرفُ؛ الآن هي لا تزال سائرة، وليست فقط سائرة بل سائرة بجرأة لا تكبح وبقدر مدهشٍ من الاستمتاع. وبسالتها الجسدية تنبئ بأنّها ستعيش على الأقل عشرين عاماً أخرى، ليس مجرّد امرأة متوسطة العمر بل كامرأة عجوز، وكان من المُرعب، طبعاً، في أوقات الصباح الربيعية البّراقة، أن تواجه المرآة في غرفة نومها بنوع من الواقعيّة التي لا تزال لا تنقذها من أن تصبح إنساناً مبتذلاً. كانت مضطرّة إلى أن تشهد أنّ وجهها الذي تراه في المرآة لم يتحمّل الفترة الحرجة التي مرّت به وهي تزهو انتصاراً كما احتملتها الأعضاء التي أبقتها على قيد الحياة. لقد طار جسدها كطائر جبّارٍ خلال وفوق الأغصان المتشابكة للسنوات القليلة الماضية، لكنّ وجهها الآن يعرض سجلّ هذا التحليق.

مؤخّراً خرجت السيدة ستون إلى الشارع عدداً من المرّات وهي تضعُ مساحيق بطريقةٍ تقترب من أسلوب وضعها لتظهر بها على خشبة المسرح، لكنّ أشعة الشمس الرومانيّة لم تكن متعاطفةً مع الخداع؛ وقد أدركت أنّها تلتقّى نظرات ليست فقط منتقدةً بل ساخرةً أحياناً. كانت تصبغ شعرها بلونٍ قاتم، قريب من الأسمر المحمّر، وعملت على اعتمار قبعات بحوافٍ عريضةٍ جداً من مادة رقيقة يرشح الضوء منها بطريقة خفّاقة، ولكن كان يرتسم في خلفيّة رأسها على الدوام، ظلّ من الشك، لم يتحوّل بعد إلى فكرٍ، في أنّ شيئاً أكثر تطرّفاً من أي من هذه الوسائل يجب أن يعملَ سريعاً على إعدادها لذلك العبور الطويل للزمن الذي يبدو أنّه ما يزال يمتدّ أمامها.

أصبحت السيدة ستون الآن تنفق مبلغاً كبيراً من المال على

الملابس في الفروع الرومانيّة لصانعي الملابس الباريسية العظام. وفي أيام جمالها الذي لا يخبو رونقه كانت تفضّل الملابس البسيطة وتكتفي بخاتم واحد. لكنّ ذوقها قفز الآن إلى نوع من الأزياء والمجوهرات كأنّها مستوحاة من الواجهات الباروكية لبرنيني[3] Bernini، من بينها رداء لوقت العشاء من التفتا الذهبيّة اللون المُغطاة بالمخرّمات العاجية كانت تضع معه عدّة خواتم مزخرفة وقلادة من اللؤلؤ والتوباز، وكانت تجرّب هذا الثوب للمرّة الأولى بعد ظهيرة أحد الأيام حين اقتحم عليها باولو فجأةً غرفة نومها مرتدياً طقماً من الفانيلا الرمادية بلون اليمام كان قد تسلّمها لتوّه من الخياط في ذلك اليوم.

لعلّه لم يكن تعقّلاً منها أن تتوقّع من باولو أن يهتمّ ببهرجتها، ولكن لو أنّه توقّف قليلاً عند المدخل فترةً كافيةً ليبدي بعض الدهشة المحبّبة لمظهرها، لما أصبحت الأمسية مصدر إزعاج. لكنّ دهشة باولو المحبّبة خُصِّصت لمظهره هو. فقد اندفع إلى المرآة كأنّها ماء وكأنّ ثيابه تحترق. ومن دون أن يلقي نظرة واحدةً باتجاه السيدة ستون راح يحدّق ويتهندم أمام المرآة، ثم وجد أنّها أصبحت لا تتّسع لانعكاس صورتيهما معاً، غمغم "بعد إذنك" ودفعها قليلاً جانباً، ثم أدار ظهره للمرآة الطويلة، وبعد أن أرسل نظرة إلى الأمام، رفع سترته إلى ما فوق وركيه لكيّ يبديا معاً، هي وهو، إعجابهما بالطريقة التي يلتصق بها قماش الفانيلا بالقالب الكلاسيكي الجميل لمؤخرته الشابّة المتماسكة.

---

(٣) جيوفاني لورينزو برنيني (١٥٩٨ ـ ١٦٨٠) رسّام ومهندس ونحّات إيطالي، كان من أعظم من مثّلوا عصر الباروك. ـ المترجم.

هنا انفجرت السيدة ستون بالضحك الذي لم يكن طرياً بل يقترب من اليأس. وفي الحال استولى الغضب على باولو، فانتزع علبة سجائره الأميركية ومضى إلى الحمّام، إلى المرآة الأصغر حجماً ولكن الأكثر خصوصيّة المُلّعقة فوق المغسلة، وهو يخاطبها بصوتٍ عالٍ "لست متعوّداً على ارتداء مثل هذه الملابس الجديدة الرائعة!" ومن ثم صفق الباب ليغلقه.

"هناك فرقٌ؛ ثلاثون سنة بيننا"، هكذا فكّرت السيدة ستون.

ثم شعرت بالخجل من نفسها. وحين ظهر باولو من الحمّام كانت قد مزجت كأسين من النغروني ووضعتهما على الطاولة ذات السطح الزجاجي من الشرفة التي لا تزال مشمسة وبينهما طاس من الزيتون. خرج باولو يلفّه الذهول. لم يول انتباهاً للمشروب بل تركها ترشف من كأسها بينما هو يتجوّل حتّى وصل إلى الدرابزين ونظر متفكّراً إلى أسفل؛ إلى الساحة الصغيرة الكائنة أعلى الدرج الأسباني. فكّرت السيدة ستون في نفسها "حان وقت تسديد الضربة القاتلة". وهكذا لم تدلّ بأي تعليق؛ راحت ترشف شرابها ونظرها مستقرّ على ظهر بذلته الفانيلا الرماديّة وفكّرت في الليل حين لن تقف الفانيلا عائقاً بينهما.

ولكن فجأة التفت باولو وسألها سؤالاً مذهلاً "من ذاك الفتى الذي بات يلاحقك طوال الوقت مؤخّراً؟".

"ماذا؟ من؟

"ألم تلاحظيه؟ إنّه يلازمنا كظلّنا أينما ذهبنا. إنّه هناك في الأسفل الآن، عند أعلى الدرج الأسباني. انظري هناك!".

نهضت وانضمّت إليه عند الدرابزين، لكنها لم تستطع أو توجّه بصرها إلى أسفل لأكثر من لحظة؛ فمجرّد الهبوط بنظرها إلى

أسفل جعل عينيها تجفلان ورأسها يدور قليلاً.

قالت لباولو "لا أستطيع أن أرسل بصري إلى أبعد من ذاك الجدار. ثم إني متأكّدة من أنه مجرّد صرّاف..."

قال باولو بغموض "المشكلة هي أنّك صرت تستعرضين نفسك!".

"لماذا، ماذا تقصد!"

قال باولو "الاستعراض هو البروز، وهذا يناسبك. إنّنا نبدو بارزين ونحن نسير في الشوارع، ألا تعلمين هذا؟".

ردّت السيدة ستون قائلة نعم، أعلم هذا. وأعلم أيضاً أنّ هذا يسرّك! لماذا تصرّ دائماً على أنّ نمرّ بالسيارة من أمام مقهى دوني مباشرة حتّى يراك كلّ من يجلس على طاولات الرصيف ويسمعك وأنت تقف هناك وتُلقي بتوجيهاتك بصوت عالٍ للسائق؟ أنت الذي يحب أن يستعرض نفسه، وأنت من ينظرون إليه غالباً، وليس أنا، ليس أنا! إنّ قوامي ليس رائع التفاصيل وليس بارزاً! ولو أنّنا، أنت وأنا، مثّلنا معاً مشهداً على خشبة المسرح لما لاحظني أحد!".

قال باولو "إنّك لا تسمعين التعليقات".

قالت السيدة ستون "آه، نعم، بل أسمعها. إنّ أذنيّ في التقاط اللغة الإيطالية أفضل مما تظن Che bel uomo, chel bel uomo!. (أي رجل جميل، أي رجل جميل!) هذا ما يقوله الجالسون على طاولات الرصيف، وأنت تنعم بتلك العبارات كما تنعم زهرة عبّاد الشمس بأشعة الشمس. حين نكون وحدنا تكون متكاسلاً وعابساً ولا تكاد تتكلّم، ولكن ما إن تجد نفسك

أمام جمهور حتّى تشعّ وتشمخ برأسك وتنفض شعرك وترفع صوتك بإلقاء الأوامر. فلا تؤنّبني لأنّ ظهوري بارز، Caro mio (يا عزيزي). إنّني لا أظهر إلا حين تفعل شيئاً يلفت الانتباه إلينا!".

قال باولو "إنّني لم أقابل أبداً امرأةً أميركيّة تعترف بخطئها في أي أمر فلا داعي لأن أعارضك. لكنني سأعيد القول بأنّك لا تسمعين كل التعليقات لأن أذنك ليست جيدة كما تظنين في التقاط التعبيرات الإيطالية. لم أكن أريد أن أقول لك ما يلي، تمنّيت لو تجنّبت ذلك، ولكن في الأسبوع الفائت اضطررت إلى تحدّي رجل للمبارزة بسبب ملاحظة قالها عنّا".

"أي ملاحظة؟"

"ملاحظة بذيئة!"

"أنت اشتركت في مبارزة؟"

"أنا قمتُ بالتحدّي والرجل غادر روما!"

لم تُزعج السيدة ستون نفسها بإخفاء ابتسامة تنمُّ عن عدم تصديق لهذا الفصل المأخوذ من غروستارك Graustark[٤] وتابع باولو كلامه بغضب أشدّ من قبل:

"أظنّ أنّه لم يتبيّن لك أنّ النساء من صنفك غالباً ما يعثر عليهنّ مقتولات في السرير. حسن، هذا ما يحدث لهنّ، ها أنا

---

(٤) غروستارك: رواية من تأليف جورج بار ماكتشن، تدور حول مغامرات رومانسية ميلودراميو لشخصيات عسكرية في بلاط مملكة وهمية اسمها غروستارك. ـ المترجم.

أقول لك، وقد وقعت حادثة في الأسبوع الماضي في الريفييرا الفرنسية. فقد عثر على امرأة متوسطة في العمر في سريرها وقد ذبحت من الأذن إلى الأذن، ورأسها مقطوع تقريباً. كانت مستلقية على الجانب الأيمن من السرير وثمّة بقع من زيت الشعر على الوسائد الأخرى. ولم يكن هناك أثر لقفل مكسور أو لاقتحام بالقوّة. واضح أنّ القاتل كان قد دخل بمعيّة السيدة وذهب معها إلى السرير ـ اختياراً!.

قالت السيدة ستون "هل يعني هذا أنّه من المُحتمل أن تقتلني؟ "

"بالضبط، اعتبري كلامي مزاحاً واضحكي، ولكن بعد ثلاث أو أربع سنوات سوف ألتقط صحيفة وأقرأ فيها وصفاً لموتك في ظروف مشابهة لتلك! ".

قالت السيدة ستون "ثلاث أو أربع سنوات هي كلّ ما أحتاج إليه من وقت. بعد ذلك سيكون حادث قطع عنقي أمراً مناسباً... "

ضحكت وقدّمت له كأس المشروب، وهي تغمغم "Stai tranquillo" (ابق هادئاً)، لكنه أبعد الكأس عنه بخشونة شديدة حتى إنّه سفح على مقدمة ثوبها. انفجرت السيدة ستون في نوبة بكاء صبيانية وهرعت إلى غرفة نومها. بعد بضع لحظات لحق بها ليقدّم لها اعتذاراً لا مبالياً ومداعبةً أشدّ برودة. قدّم فمه لها لتقبّله وسمح ليديها أن تطلق العنان لاشتياقها الشديد إلى احتضانه، ولكن بعد قليل همهم "أريد أوّلاً أن أنزع مدلاة جدتي". ورأت السيدة ستون، التي لم تشعر بحاجة أو رغبة في تعذيب نفسها، أنّ أفضل تصرّف حكيم هو ألاّ تسأل لماذا لا تبقى المدلاة في مكانها...

تواصلت المسية حسب مراحلها المُقرّرة من دون أن ينسكر مسار الانعطاف نحو الأسفل لروح السيدة ستون إلى مرحلة القلق العاجز ولا تحوّل مزاج باولو المرح إلى عبوس صامت.

في مقهى روساتي اجتمعا ببعض الأصدقاء لتناول الكوكتيل. كان الناس غرباء على السيدة ستون. وهي كادت ألا تتبينّهم من خلال غشاوة رعبها الأولى ولم تكد تسمع حديثهم، سمعت فقط ضحكهم، الذي صدمها وكأنّه موجّه بشكل غير مباشر إليها. ولم تتمكّن من التحدّث مع باولو ورفض هو أن يفعل. كان يبرز شفته السفلية ويجعل عينيه متراخيتين ليس في وجه شخص حاضر بل لمخلوق خفيّ أثيري. وإحدى الفتيات الجالسات على الطاولة أثارت الكثير من الجلبة لأجله. كانت تنتقي حبّات الكرز من كأس الكوكتيل وتحاول أن تحشو بها فم باولو، وكان هو يصدر صوتاً منخفضاً من حنجرته مثل طفل نزق وهو يلوي وجهه مبعداً إياه بشكاسة عن العرض اللذيذ. وكان يطبق أسنانه البيضاء على أصابعها، فتزعق مع ادّعاء مغتبط بالألم. كان وجهها يبدي الغضب، وتبقى أصابعها في فمه وتظلّ عيناه شبه مفتوحتين ويظلّ يصدر الأصوات الجديرة بطفل صغير من حنجرته بينما إحدى يديه تداعب بارتخاء وسط حجره.

لم يعد في استطاعة السيدة ستون أن تحتمل المزيد، فنهضت بسرعة عن الطاولة دون أن تتفوّه بكلمة استئذان ومشت إلى واجهة البار. هناك نظرت خلفها. واضح أنّه لا أحد لاحظ انسحابها. كانت لعبة الكرز الصغيرة ما تزال دائرة والآخرون مجتمعين حولهما في حلقة ينوبون عنهما بالابتهاج. والندل يراقبون ويبتسمون. واقترب رجل يعزف على الكمان من الطاولة ومال

رأس الفتاة الجميلة أكثر نحو باولو بحيث انهمر شعرها، الأشدّ دكناً من اللون العسلي بقليل، على وجهها وحفّ بوجهه، وتحت الطاولة كانت ساقاهما تتضافران معاً بشهوانية واليد التي كانت تداعب بارتخاء وسط حجره انتقلت الآن إلى حجرها. لم يأبه أحد؛ لم يعترض أحد. لم يدرك أحد أنّ السيدة ستون قد نهضت عن الطاولة، وأقلّهم انتباهاً كان عازف الكمان الذي كان يحتفي فقط بعبث الشباب الجميل...

فكّرت السيدة ستون "ماذا يهمُّ الآن"، فكّرت على مضض شديد حتّى إنّ الكلمات خرجت من بين شفتيها غمغمةً.

وفي الحال، وكأنّما استجابة لغمغمتها، سمعت صوت ربتٍ معدنيّ ضعيف. لم تلتفت. الربت جاء من مسافة بضعة أقدام فقط من الجانب الآخر لباب الخروج الذي كانت تقف بالقرب منه. كان هناك رجل طويل القامة يقف هناك. كان يتفحّصُ داخل المبنى، ورأسه ماثلٌ وكأنما ينظر إلى أسفل؛ إلى المادة المعدنيّة التي كان يدقُّ بها على الزجاج لكنّ الربت السرّيّ كان موجّهاً إليها. شعرت السيدة ستون بفقدان القدرة على الحركة. مرّ زوج من الشبان يتمشيان بالقرب منها فتوقّف الربت بضع لحظات. ثم عاد من جديد، بنبرة أعلى قليلاً. وجو الغسق الأرجواني أصبح تياراً عاتياً جرفها نحوه، لكنّها لم تنظر إليه، ومن دون أن تنظر إليه قرّبت وجهها من وجهه.

قالت بهمسٍ حادٍ "انظر إليّ! لماذا تلاحقني، ألا ترى وجهي؟"

ارتدّ الشاب إلى الخلف حين دفعت رأسها نحوه، وهمهم بشيءٍ غير واضح ودار على عقبيه وبدأ يسير على الممشى ورأسه

محتي داخل ياقة معطفه. بعد قليل توقّف ثانية وكأنّه ينتظر أن تنضمّ إليه.

في تلك الأثناء خرج باولو من البار.

"لماذا تركت الطاولة؟"

همست "استدع سيارتي من فضلك"

ركبا السيارة خلال فيلا بورغيز صامتين. مالت برأسها إلى الخلق على الوسادة الجلديّة للسيارة المكشوفة حتّى خُيّل إليها أنّ موجة الرعب المبهم قد تلاشت، ثم وجّهت السائق إلى مطعم في تراستيفيره، وفي الوقت نفسه وضعت على لسانها، خلسة، قرصاً صغيراً أبيض من حشيشة ست الحسن. كان باولو أثناء تلك النزهة شارد البال حتّى وصل إلى قمر الربيع الذهبي. غاص عميقاً في المقعد ويداه في جيبيهن وقد تباعدت ركبتا ساقيه المُلّبستين ببنطال الفانيلا الطويل منفرجتين بتثاقل متراخٍ كجناحي فراشة متعبة. وبينما هما يعبران نهر التيبر تجرّأت ومدّت يدها ووضعتها على الركبة القريبة منها. قبل اللمسة من دون أن يستجيب لها.

في المطعم، مطعم ألفريدو، تناولا العشاء في الخلاء. لقد جعلها التعب العصبيّ تشعر بجوع نهم ولكن ما كادا يباشران الأكل حتّى خرق باولو عبوسه الصامت بهتاف عنيف:

"يا إلهي! أنسيت؟"

"ماذا، باولو؟"

"لقد دعوت الكونتيسة وبعض الأصدقاء ليشاهدوا أشرطتنا السينمائية!"

"أنا دعوتهم؟"

"أنت دعوتهم، أم أنا دعوتهم؟ ما الفرق؟ سيحضرون خلال خمس دقائق ولا يوجد إلا الساقي في استقبالهم!"

"أين؟"

"في شقّتك! وأين تظنّين؟"

أخذت تحتجُّ، لكنه كان قد نهض لتوّه وغادر الطاولة ولم يبق أمامها إلاّ أن تدفع الحساب بالشيك وتتبعه خارجةً إلى السيارة. كان تصرّفاً فظّاً لا يمكن احتماله أبداً لم تتعرّض لمثله دهرها، هكذا فكّرت.

لعلّ ذلك صحيح.

في الماضي لم تضطرّ كثيراً إلى التفكير في مشكلة الحفاظ على هيبتها؛ فوسط غطرسة جمالها ومجال عملها في عالمين، المسرحي والاجتماعي، بدت تلك الهيبة في منأى عن التعرّض لخطر الشُبهة، ولكن مع زوال جمالها وابتعادها عن تلك الأجواء التي كانت تتمتّع فيها بشخصيةٍ ذات سمو منيع. لم تعد تستظلّ إلا بحماية الثروة: الثراء لا يضمن الهيبة. إنّه حتماً لم يضمن هيبة السينيورة كوغان. إذا صدّقت الأقاويل حول سلوك تلك السيدة. وراحت السيدة ستون تردّد لنفسها في الفترة الأخيرة قائلة "لن أفقد هيبتي، مهما حدث لن أفقدها"، ولكن كانت دائماً تقوم بتصرّفات لا تتّفق على الإطلاق مع ذلك التصميم. على سبيل المثال، ذات مساء حين كانت في انتظار باولو راحت تخرج من بين الأغراض المخزونة للمرحوم السيد ستون عدداً ضخماً من التذكارات المسرحية احتفظت بها كسجلّ عن تاريخها المهني. كان من بينها صور فوتوغرافيّة لها تمثّل الأدوار العظيمة كلّها التي أدّتها، بما فيها أداؤها العاثر الأخير لدور جولييت، وكان المرحوم السيد

ستون الوحيد الذي رأى أنّه كان أداءً فذّاً لا يُنسى، وكان يصرّ بشغف على أنّه أعظم ما أنجزت في حياتها. بعد أن أخرجت هذه الصورة بالذات من مجموعة السيد ستون تذكّرت الرسالة التي تثير السخط والتي ضبطته وهو يمليها على سكرتيرته، في اليوم الذي نشرت فيه تلك الملاحظات القاسية. كانت موجّهة إلى الناقد الوحيد الذي كان من قلّة الشهامة بحيث يُلمّح إلى أنّ مواهب السيدة ستون المحدودة في أداء الدور لها بعض العلاقة بالسن الذي لعبت فيه الدور. وقد رفضت أن تدع صيحة الاحتجاج تصدر عنها، أما الآن فها هي هذه الرسالة، المُثبّتة إلى ظهر صورتها وهي بالزيّ المسرحي، موقّعة باسم توماس. ج ستون ومؤرّخة قبل وقت وفاته بشهرين. وعلى عجل فكّت الرسالة عن الصورة، وراحت تحدّق بتركيز في صورتها وهي تقوم بآخر دور مسرحي لها. لقد أخذت لها أثناء بروفة ملابس حين تكون الأعصاب قد وصلت إلى حدّ الهذيان، ولكن هل يكفي هذا لتبرير البريق الصارخ، ولا أقول الرونق الخجول نسبياً، الذي قابلت به العينان، من تحت غلالة متراميةٍ من الشعر الأشقر والآلئ، حدقة الكاميرا؟ كان الوجه موجوداً في بؤرة أكثر رقّة، ولكن مع ذلك، لم يكن ثمّة شيء من سمات الصقر في تعبيره؟ توجّهت السيدة نحو المرآة، وكأنّها على وشك أن تقع على سرّ مكنون في نفسها، والصورة في يدها، ولكن في منتصف المسافة استدارت وأسقطت الصورة، وكأنّها ورقة شدّه تنذر بالشؤم، في أسفل المجموعة، وبالإضافة إلى الصور، التي يوجد منها المئات، عثرت على مجموعة السيد ستون من برامج كلّ العروض المسرحية التي ظهرت فيها، وقد طبع اسمها بحروف كبيرة فوق الحروف الصغيرة للعناوين

العظيمة، وعثرت على تشكيلة ضخمة من قصاصات الصحف والمجلاّت يعود تاريخها إلى ما قبل خمس وعشرين سنة، قبل أن تصبح السيدة ستون بزمن بعيد. وكادت ذراعاها تعجزان عن دعم جبل التذكارات حين حملتها إلى مائدة الطعام الواقعة في منتصف الصالة، بحيث لا يسع باولو إلا أن يلاحظ وجودها عند دخوله. ولكن في اللحظة الأخيرة، بعد أن أعلن جرس الباب قدوم باولو من الطابق السفلي، سربلتها مهانة مثل ذاك الاستجداء للاحترام بشعور بالخزي فأسرعت بحمل الكمّية كلّها بين ذراعيها واندفعت عائدةً بها إلى المستودع. وقد انزلقت من قبضتها صورتان أو ثلاث من صور الأزياء الفخمة وسقطت على الأرض. اعترضت طريق باولو مباشرة حالما عبر الباب، فالتقطها وطوّح بها إلى الطاولة بعد أن ألقى عليها نظرةً سريعةً من دون أن يُعلّق.

والآن، والسيارة تعود بهما إلى شقتها كانت تردّد لنفسها ذلك القرار من دون جدوى "لن أفقد هيبتي مهما يحصل!"، ولكن حالما مال باولو عليها فجأة ولثم وجنتها الموروبة بفمه الفتيّ الدافئ التفتت بكل جسمها نحوه وضمّت صدغيه البرّاقتين بين كفّيها وهتفت في وجهه "باولو، باولو، أنا لست السينيورة كوغان؛ لست تلك العجوز الحمقاء البائسة ذات الخمس شعرات والسّنّين في رأسها والتي لا تملك أن تهبك إلاّ مالها!".

قال باولو منزعجاً "لا أعرف عمّا تتكلمين"

شعر بالفزع من مقدار ما أبدت من حدّة. لكنّها لم تتركه. لوى رأسه بعنف لكنّها أحكمت قبضتها على تموّجات شعر صدغيه الأسود الملمّع والمُعطّر.

أصرّت "انظر إليّ يا باولو"

"لماذا؟ ما الأمر؟"

"أريدك أن تفهم أنّي لست كذلك حقّاً، ولا حتّى حين أكون متعبة وأفقد هيبتي، لست كذلك تماماً!"

"أنا لم أقل إنّك تشبهين أي شيء!"

"إنّ ذلك يبدو من طريقة معاملتك لي! في أميركا أنا لا أزالُ احتفظ بسُمعتي كامرأةٍ تتحلّى بالموهبة والجمال يا باولو. ومجلات الموضة لا زالت تتمنّى أن تعرض صوري وأنا أعلن عن أشياء مثل السجائر ومواد التجميل. وكُتبت مسرحيات خصيصاً لأجلي وألّفت كتبٌ عني؛ اسأل أي شخص ذهب إلى لندن أو نيويورك أو باريس، أي شخص سيخبّرك، حتّى صديقتك الكونتيسة، أني لست ممّن يعاملون كما عوملت السينيورة كوغان. حين نصل إلى المنزل يا باولو، ربّما ليس هذا المساء، لأنّ هناك أناساً سيحضرون، بل غداً، سأستخرج مجموعة تذكارات مسرحية احتفظ بها زوجي لأجلي وسترى بنفسك ولن اضطرَّ إلى إخبارك!"

إذن فقد حصل؛ ضاعت الهيبة كلّها، وها هي الآن تحفر بهياج بحثاً عن منديل وعلبة تجميل في حقيبتها وأنفاسها تجيش.

كانت السيارة تنعطف إلى شارع فيا غريغوريانا.

أجبرت نفسها على الكفّ عن النشيج وفتحت علبة المساحيق.

وتكلّم باولو:

"نعم، أنا أيضاً شاهدت صورك في مجلاّت الموضة. ولكن بما إنّك فتحت هذا الموضوع، الذي أرى أنّه ليس موضوعاً وقوراً جدّاً، دعيني أذكّرك بأنّي أنا أيضاَ التقطت لي صور فوتوغرافية،

من قبل سيتيمانا إنكوم، هذا مثال واحد، ولم تؤخذ لي صور فقط؛ بل ورسمت صورتي في لوحة بيد أشهر رسّامي أوروبا. ولست أنت أوّل سيدة عظيمة أخرج معها. لا، ولكن في الموسم الفائت، في الشتاء السابق للقائي بك، سافرت إلى كلّ أرجاء بلاد المغرب والأندلس بصحبة السيدة جاميسن ووكر التي نشرت لها صور في مجلات للموضة خلال شهر واحد يفوق عددها ما يراه أغلب الناس في عام!".

كانت السيارة قد وصلت إلى بوابة العمارة.

قالت السيدة ستون حين كانا في انتظار البواب ليفسح لهما الطريق للمرور "معك حق، باولو؛ إنّه ليس موضوعاً وقوراً، واعتقد أن أسوأ ما في علاقة حب تنشأ بين شاب صغير جدّاً وامرأة أكبر منه بقدر ما هو الخسارة الرهيبة في الهيبة التي يبدو أنّها تتطلّبها..."

كانت الكونتيسة وثلاث من النسوة الأصغر سنّاً قد اجتمعن في شقة السيدة ستون في انتظار عودتها. إحدى الضيفات كانت ممثّلة سينمائية أميركية شابةً وقد أعدت السهرة على حسابها. وبالأمس القريب قرّرت السيدة العجوز أن تصلح سوء التفاهم القائم بينها وبين باولو. وقد استخدمت الممثلة الشابة كطعم، كقطعة من السكّر تلاطف بها مهراً مشاكساً ليعود إلى الإسطبل. وكانت قد أخبرت باولو على الهاتف أن الممثلّة الشابّة هي في طور الانتقال من زوج إلى آخر وهي ضجرة بلا جدال. وقالت الكونتيسة "أنا واثقة من أنّ هناك مكسباً من هذه الناحية أكثر مما نجحت في الحصول عليه من السينيورة ستون، وأنا لا أقصد شيئاً مادّياً صرفاً، فكما تعلم يا باولو، Caro (يا عزيزي)، أنت لست مجرّد

شاب جميل آخر، بل فيك ما هو أكثر؛ لديك الأسلوب الأنيق، لديك التميّز، وتتحلّى بشيء تستجيب له ملايين النساء عندما يعرض على الشاشة!".

هذه الإشارة من الكونتيسة كان القصد منها التلميح إلى خيبة أمل أصيبت بها مؤخّراً أثناء زيارة قصيرة إلى السيدة ستون. في ذلك الوقت قرّرت الكونتيسة أن تنهي اهتمامها بمستقبل السيدة ستون في روما، وعلى هذا الأساس تقدّمت بطلب قرض منها مقداره ألف دولار. المبلغ الذي حصلت عليه كان أقلّ من ذلك بكثير. فقد قدّمت السيدة ستون عذراً ضعيفاً بقولها إنّ حسابها في المصرف قد قُيّد لسبب قضائي مبهم في الولايات المتحدة.

والآن بينما المجموعة تنتظر السيدة ستون، نظرت الكونتيسة في كأس البراندي ورأت فيه خطراً. ولمّا كانت تتوقّع أن تتلقّى دعوة إلى العشاء لم تتحقّق، فقد قلّلت العجوز من أكلها في ذلك النهار، وأدركت أنّها إذا تذوّقت البراندي فإنّه سيجري مباشرة من يدها إلى لسانها، ولكن حتّى وهي تقولها لنفسها "يجب ألاّ أتذوّقه" كانت يدها المتمرّدة ترفع الكأس إلى منخريها، وحالما استنشقت العبير بدا لها أنّ الكأس دار، من تلقاء ذاته، بين أصابعها وأفرغ نفسه داخل جوفها، والذي تقلّص واحترق لبرهةٍ لذيذةٍ، ثم، وفي البرهة التالية، كأنّما تحوّل إلى خيط حريريّ يربط بالوناً وينزلق بين إصبعين من أصابعها نحو السقف. وقفت كأنّها تنصت سرّاً إلى صوت صادر من الباب الخارجي، وسمعت نفسها تنطق اسم السيدة ستون. لم تلتقط إلا الاسم بوضوح شديد وهي تضغط أذنها على ذاك الحاجز الغامض، إلاّ أنّها التقطته مرّةً بعد مرّة، وسمعت همهمة خافتة مثيرةً لكلماتٍ تصلها ممطوطة.

وكانت بين حين وآخر تنطق عبارة تخرج من فيها هي، ومع ذلك لا تسمعها تماماً. إلا أنّها شعرت بشفتيها تتلوّيان، طول الوقت، كجناحين ثملين لحشرة تحوم فوق زهرة مغذية. وبينما هي تتابع همسها اقتربت السيدات الرومانيات مُرفرفات بنهم نحوها، كلّهن يتغذّين من الرحيق السكران نفسه وقد ألهبت الممثلة السينمائية إثارتهن بلهاث الخوف والدهشة. قربت الكراسي إلى بعضها، لأنّ الكونتيسة كانت تتكلّم بنبرة هامسة سريعة، وهي تقذف باستمرار نظراتها إلى الباب المُغلق المؤدّي إلى الردهة التي يتوقّع من موضوع ثرثرتهنّ أن يعبرها لدى وصولها.

لكنّ الذي حصل هو أنّ السيدة ستون لم تأت من الباب المتوقّع، وإنّما دخلت أوّلاً إلى غرفة النوم لتخلع قبّعتها وقفازيها، وتبعها باولو إلى هناك ليمشّط شعره ويتعطّر. لم يتكلّم أيّ منهما ولا نظر أحدهما إلى الآخر. وقفا أمام مرآتين منفصلتين، صامتين كاثنين من اللصوص، وتناهت همهمة صوت الكونتيسة مُرهفة كهربائية إلى السيدة ستون بضع دقائق قبل أن تبدأ بالإنصات قصداً إليها. في الحقيقة لم يكن صوت الكونتيسة ما لفت انتباهها، بل تعبير تعجّب صادر عن ممثّلة السينما الأميركية. فقد ردّدت الممثّلة السينمائية عبارةً معيّنة لم تكن واضحة لها، وتوضيح الكونتيسة الفظّ للعبارة هو ما انتزع الشهقة من الشابّة. هنا اقتربت السيدة ستون من الباب لكنّها ظلّت في الداخل. فمن المزعج دائماً أن يسمع المرء أنّه موضوع مناقشةٍ بين أناسٍ لا يخطر لهم أنك تسمعهم. حتّى عندما تكون تعبيرات المناقشة عاديةً تماماً. فإنّها تبثُّ فيك شعوراً غير حقيقيّ بشكل غريب. لكنّ مصطلحات النقاش التي استرقت السيدة ستون سماعها لم تكن عادية وصعقتها

إلى درجة أن الردح الأخير من حياتها كلّه تمثّل أمام عينيها فوراً؛ أصبح مرئياً وليس مفهوماً، كأعمى يتحسّس طريقة خلال ممرٍّ مجهولٍ، وسط ظلامٍ مطلق، وفجأةً تدفّق فيض من الدور، فتراجعت من أثر الصدمة والرعب عن الجدار الذي كانت تتلمّسه بأصابعها، والآن تكشّفت فجأة مساحةً ممتدّةً حولها.

ويبدو أنّ باولو أيضاً كان قد بدأ يسمع المناقشة الدائرة في الغرفة المجاورة، لأنّه حين التفت السيدة ستون إليه جمد في مكانه، وتوقّف المطر وفرشاة الشعر على جانبي رأسه الصقيل. إبّان نظرتها كسر جموده فرمى ما كان يشغله واندفع عبر الباب الذي كان يتنصّت من خلاله، وقال وهو يتجاوزها ويفتح الباب "أنا لا أستحسن استراق السمع"، ودخل بشجاعة. لدى دخوله اطلقت الكونتيسة صرخة صغيرة مجفلة وارتدّ الآخرون إلى كراسيهم من الإحساس بالذنب ولكن لم يكن في مظهر باولو ما ينمُّ عن أنّه سمع أي شيء. ولم تتبعه السيدة ستون إلى الصالة فوراً؛ راحت تراقبه وهم يعرّفوه إلى الممثّلة السينمائية؛ رأته يرفع يدها إلى شفتيه لكنه أسقطها من دون أن يلثمها، بأشدّ أساليب التعبير عن الشهامة الرومانية وهناً. رأته يجلس بأناقةٍ على ذراع كرسي الكونتيسة. والسيدة ستون ما تزال في الطرف الآخر للباب الموارب، لا هي قادرة على الدخول ولا على الانسحاب من المكان. وما كان في الإمكان إلا أن يروها واقفة هناك بسبب خطّ النور العريض الذي عكس قامتها على طولها بثوب العشاء الذهبي المتلألئ، ولكن لم ينظر أيّ منهم نحوها، بل اجتهدوا لإبقاء عيونهم بعيداً عن وقفتها المتلبّسة الرائعة في ممرّ الباب، وكأنّهم يدّعون أنّهم لم يلاحظوا حدوث تصرّف غير لائق. وقامت

الكونتيسة بعدّة محاولات متلعثمة للتكلّم. كان واضحاً أنّها ستصاب بنوبةٍ أخرى من الربو العصبي. وراح الآخرون يحدّقون في باولو بابتسامات ثابتة كابتسامات عارضات الأزياء، غير أنّه لم يبد على باولو مثل ذلك الهدوء الملائكي من قبل. لم يقم بأي مجهود لإخراجهم من مأزقهم إلا بتقديمه قدوته في إبداء الهدوء المُشين. وكالعادة، سقطت إحدى يديه في حجره، وبينما هو يتحدّث حديثاً عارضاً إلى الممثلة السينمائية لم تكن عيناه أبداً ترتفعان لتقابلا عينيها بل كانتا تعبثان خلسةً حول فمها وصدرها البضّ الشهير. كلّ هذا والسيدة ستون ما تزال واقفةً في مجرى النور خلال باب موارب، كأنّها أمام جمهور يحضر مسرحية وهو شديد القرب من الخشبة التي تغمرها أضوؤها. كانت خيبة الكونتيسة تزداد باطراد، مدّت يدها إلى كأس البراندي لكنّها بدت لا تملك القوة اللازمة لرفعه. وبعد أن أنجزت تلك المناورة اليائسة اكتشفت أنّ الطاس كان فارغاً. وفجأة ألفت السيدة ستون نفسها تتكلّم. سمعت نفسها تقول "باولو، إنّ كأس الكونتيسة يبكي!" ومن ثم وجدت نفسها تتحرّك باتجاه الغرفة وتنخرط في سلسلة آلية من التحيات والاعتذارات لأنّها تأخّرت. وأخيراً قالت للكونتيسة "والآن في وسعك أن تتابعي قصّتك!".

في هذا الوقت كان كأس الكونتيسة قد مُلئ من جديد وتمكّنت من السيطرة على اضطراب تنفّسها، أو لعلّ ذراع باولو الموضوعة بتهاونٍ على كتفها هي التي أعادت إليها ثقتها في نفسها. قالت "أوه، كنت فقط أحكي للآنسة تومبسن عن الموسم الرائع الذي أمضته السينيورة كوغان في كابري".

قال باولو "يا للعجوز السخيفة!" وقفز عن مجلسه على ذراع

الكرسي ومدّ يده إلى النجمة السينمائيّة. قال "هيا إلى الخارج، وسأريك روابي روما السبع!".

كانت السيدة ستون قد استسلمت عندئذٍ إلى رفقة السيدات الرومانيات اللواتي أخذن يتكلّمن بحيوية شديدة عن أوبرا الصيف التي أقيمت في الترمه دي كارا كالا. مرّت عدّة دقائق لم تسمع السيدة ستون خلالها أي شيء. في تلك الأثناء كان الساقي قد وضع آلة العرض وشاشة العرض في مكانيهما، ثم سأل إن كانوا يريدون أن يبدأ العرض. أشارت السيدة ستون إلى أنّهم مستعدّون، فأطفأت الأنوار، ثم خرجت إلى الشرفة، بحجّة استدعاء باولو والنجمة السينمائية، فلم تجد فيها إلا باولو وحيداً مع القمر المصقع الفتيّ الذي بدا، في وقت مبكّر من الأمسية، يشبهه إلى حدّ عجيب. سألته "أين سيدة الشاشة الفضيّة؟".

قال باولو "ذهبت"

"أبهذه السرعة؟"

قال لها "أدركت أنّك ستلحقين بنا في غضون خمس دقائق".

قالت السيدة ستون "أخشى أنّي لا أرى الصلّة بين ملاحظتك السخيفة وسؤالي".

شعرت أنّ رأسها أيضاً يشبه بالوناً أفلت من بين أصابع ممسكة به. التأثير المحرّر لم يكن بمثابة براندي مسكوبٍ فوق الجوع والخُبث، بل نوعاً من الرعب اختار أن يندفع مباشرةً إلى مركز الخطر على أن يطير مبتعداً عنه.

تابع باولو قائلاً "قلت لها إنّك مصابة بالهستريا، ونصحتها بالمغادرة".

صرخت السيدة ستون "هذه ثالث أو رابع مرة هذه الليلة تهينني فيها بشكلٍ لا يحتمل. أوّلاً في مطعم روساتي بتصرّفك المشين مع تلك الفتاة السكرانة حتّى إنّي لم أستطع أن أبقى على الطاولة، ومرّةً أخرى في مطعم ألفريدو حين أخبرتني فجأة".

قال باولو "أرجوك؛ إنّي أعاني من صداعٍ رهيب!".

قالت السيدة ستون "إنّ رأسك أشبه بتلك الساعة الفرنسية الموجودة فوق رف الموقد ذات الصندوق الزجاجي بحيث يمكنك أن تراقب كلّ الدواليب الصغيرة والنوابض وهي تعمل. أعرف بالضبط ماذا ستقول وتفعل تماماً كما أعرف متى ستدقُّ الساعة في وقتها! أنت الآن على وشك أن تقول إنّك تستطيع أن تبقى هنا هذه الليلة. أليس صحيحاً؟ لكنّ هذا ليس بسبب الصداع، بل لأنّك ستتوجّه مباشرة من هنا إلى فندق إكسيليسيور حيث ضربت موعداً مع تلك الرخيصة الحقيرة".

قال باولو "رخيصة ليست الكلمة التي تليق بك أن تستخدميها".

"ألا تظنّ أنّي أعرف لماذا أحضرت إلى هنا هذا المساء؟ لقد أحضروها إلى هنا لأنّ صديقتك، الكونتيسة، هي قوّادة لديها مجموعة من الفتيان الجميلين تسمّيهم marchettas تقدّمهم لمن يدفع أكثر. لكنّها اكتشفت أنّي لن أشترك في هذا النوع من العلاقات البشعة، لذا قرّرت أن تسلّمك إلى أخرى تقبل بشروطها!".

قال باولو "لم أكن أعلم أنّ رأسك يُشبه البالوعة إلى هذا الحدّ!"

"إن كان كذلك فبسبب علاقتي بـ"

قال باولو "انتظري!".

وسدّ فمها بيده، بينما انغرزت أصابع يده الأخرى حتّى الإيلام في لحم كتفها.

قال "انتظري، سأقول لك شيئاً. يجب أن تغادري روما. يجب أن تغادري روما لأنّك دمّرت نفسك هنا ولن أدهش إذا ما رفض الـ Ques tura (مركز الشرطة) أن يجدّد لك الـ (permesso di soggiorno تصريح الإقامة)، وطبعاً هذا شأنك أنت والـ Questura، لا شأني. أمّا الشيء الذي لا يعجبني شخصياً فهو خداعك!".

"باولو، أجننت؟"

"لا، لم أُجن، ولا فقدت ذاكرتي. أذكر أنّك قلت لي في شهر شباط الماضي إنك ستساعدين صديقي فابيو الذي خسر كلّ شيء على يد ذلك الكاهن القذر في السوق السوداء!".

صرخت "أوه، باولو"

حاكاها ساخراً "أوه، باولو".

قالت السيدة ستون "حسبت أنّ ذلك كان حلماً بشعاً، أو إذا كان حقيقياً فيمكن نسيانه الآن!".

قال باولو "الذاكرة الضعيفة مصدر ارتياح عظيم".

صرخت بحماقة "باولو، كيف تجرؤ على مخاطبتي هكذا!"

مرّة أخرى ضغط يده على فمها.

"هناك أناسٌ في الداخل لهم آذانٌ وألسنة!"

"لا يهمّني الناس! أريد أن أعرف لماذا قلت لي مثل تلك الأشياء الشنيعة، المُهينة!"

"أنا ما قلتُ إلاّ ـ"

"بل قلت إنّـ"

ضغطت أصابعه بقوّةٍ أكبر على فمها حتّى أسكتها تماماً برهة.

همس "إنّك لا تصغين إليّ؛ لا تأخذين بتحذيري. إنّك شديدة الانتفاخ بمجدك، وثرائك، وصورك في مجلات الموضة، وزوجك الملك الهشّ الذي خلّف لك ملايينه. ولكن هذه مدينة عريقة جدّاً. روما عمرها ثلاث آلاف سنة، فكم عمرك إنتِ؟ خمسون؟".

شهقت "خمسون؟"

كانت هذه الكلمة هي التي أجهزت عليها. لقد همست لنفسها بكلمة هيبة، لكنه كان مجرد همس لكلمة، أمسكت بها وذرتها في عاصفةٍ من غضبها.

كان باولو قد تحرّك باتجاه داخل الشقة، لكنّ السيدة ستون اندفعت وسبقته بسرعة طائر عظيم الجناحين، ووصلت أولاً إلى المدخل. فتحت الباب الزجاجي بعنف شديد حتّى إنّ ألواح الزجاج اهتزّت وطقطقت. بعد ذلك لم تعد واثقة ماذا قالت للسيدات الرومانيات.

رأت كأس البراندي ينزلق من يد الكونتيسة لكنها لم تسمع أي صوت حين تهشّم على الأرض. سمعت صوتها يتكلّم ولم تسمع الكلمات التي كانت تصرخ بها. الصوت نفسه لم يكن يخصّها، وتلك الخدعة مرّت فيها خلال لحظات معيّنة وهي على خشبة المسرح، في مشاهد الانفعال العنيف! التي طالما مثّلتها مرّات عديدة بحيث بات أداؤها درباً تقتفي أثره من دون تفكير. بل إنّها لم تدرك أن باولو عاد إلى الشقة إلى أن عادت يده تضغط على

فمها الزاعق، ولا علمت أنّها عضّت اليد إلى أن انتزعتها بعيداً وهو يصرخ لاعناً وضربها على وجهها بالأخرى.

كان على كلّ هذا أن ينتهي بسرعة، إلاّ أنّه طال بشكل عجيب بسبب الصعوبات التي عانتها الكونتيسة وهي تنهض لتقف على قدميها. انزلقت عصاها تحت وطأة ضغطها فتشبّثت بعجز بذراعي الكرسي، وكادت تنهض مرّةً أخرى إلا أنّها عادت فانهارت. أمسكت بها السيدتان الأخريان كلّ من مرفق وأخيراً انهضتاها، ولكن بينما هما يساعدانها على اجتياز الردهة كانت ساقاها تتحرّكان بحركاتٍ مطاطيّة مترهّلة كأنّها ممثل هزلي يحاكي شخصاً سكيراً.

***

قالت السيدة ستون لنفسها "إنّني أنجرف، أنجرف".

رحت تتنقّل في الشقة. نظرتْ إلى الوحشة البيضاء الشديدة الاتساع للسرير. وقفت من دون حراك وأنصتت بتركيز كبير حتّى أمكنها أن تسمع الساعة في الغرفة المجاورة تتك. نعم، الزمن أيضاً ينجرف. والنوم ينجرف. كان النوم ينجرف فوق المدينة العتيقة. ولو أنّها نظرت من النوافذُ أو تجوّلت في الشرفة، لرأت أنه حتّى السماء تنجرف. كل شيء ينجرف. هل هناك غير هذا الانجراف الهائل للزمن والوجود؟ هل هناك ما هو ثابت؟ أوه، نعم. هناك قامة المراقب المنفرد الواقف تحت المسلّة المصرية. هذه القامة لا يبدو أنّها ستنجرف أبداَ؛ إنّها ما تزال هناك في الموقع نفسه بالضبط حيث كانت عندما تحدّث باولو عنها في وقت لاحق من تلك الأمسية. لكنّ كل ما عدا ذلك كان ينجرف. الوجود نفسه ينجرف. هي تنجرف. وانجرفت مرّة أخرى إلى

الغرفة الأمامية للشقة. انجرفت نحو رف المدفأة ومنهُ من تحت الساعة الزجاجية المزخرفة التي تكشف عن كلّ تحركاتها وهي تعلن الدفق المنتظم للزمنُ أراحت قطعة من الورق الأرجواني تحيط بقطعتين أخريين من الورق. واحدة بطاقةٌ بيضاء صغيرة تحمل اسم جرّاح من باريسُ والأخرى صورة فوتوغرافية صغيرة، تظهر وجهاً ذا جمال غير أرضيّ بشكل غريب: غير أرضيّ لأنّه لا يحمل تعبيراً بلا تعبير لأنّ خطوطه أزالها جرّاح التجميل المكتوب اسمه على البطاقة. وعلى ظهر الصورة الفوتوغرافية كتبت رسالة قصيرة، بخطّ مهزوز من رعشة الإثارة "هكذا صرت أبدو الآن!". عادت تنظر إلى قطعة ورق الكتابة الأرجوانية، إلى الاسم المُخربَش في أسفلها، اسم صديق قديم لها. الرسالة موجودة على الرف منذ وقت طويلُ منذ أوائل الشتاء الماضي. لماذا احتفظت بها؟ هل تفكّر في ذلك؟ لا، لا، تحت ساعة الرف؟ وأعادتها إلى مكانها هناك وظلّت واقفة أمام الرف تراقب الآلات النحاسية البراقة للساعة، ارتفعت مطرقة نحاسية صغيرى، ظلّت متوازنة للحظة، ثم ضربت ثلاث مرات، بتسلسل متقارب، على جرس زجاجي صغير، ثم انزلقت عائدة لَى مكانها دون أن تقوم بأي حركة أخرى. لكن الزمن ظلّ ينجرف. التكتكة المتواصلة جعلتها تتيقّن من ذلك. وهي نفسها تنجرف الآن. انجرفت عائدة إلى غرفة نومها. والآن عادت تنظر إلى الوحشة البيضاء الفسيحة جدّاً للسرير. إنه مشهد شاسع من الثلج؛ امتداد من العزلة الصرف. وفي مكان ما غير مرئيّ من امتداده الأمس ثمّة براري بلد النوم ينجرف فيها عقل الليل من دون إدارة بين ظلال منحرفة لا معنى لها أو بمعانٍ لا يمكن إدراكها. هزّت رأسها، ونظرت إليه.

غمغمت لنفسها "لا". لن تقبله. ومن ثم انجرفت إلى الحمّام وملأت كأساً من ماء الصنبور وعادت إلى غرفة النوم والكأس في يدها، وراحت تشرب منه رشفات من دون أن تكون عطشى. واستمرّ الخواءُ الانجراف الذي كان خواء استمر. قالت لنفسها "فليحدث شيء، أي شيء، إلاّ الخواء، لا يمكن السماح للخواء أن يستمرّ ويستمرّ ويستمرّ هكذا!".

بعد فترة من الوقت ألفت نفسها واقفة أمام درابزين الشرفة.

والآن هناك شيء بدأ يحدث فعلاً. لم يكن أمراً خطّطت له أو أرادت وقوعه، ومع ذلك كانت تجعله يحدث؛ يحدث تحت إدارتهاُ لأنّها هي التي أعطت إشارة البدء بمنديل أبيض رفعته وخفضته بسرعة في هواء الليل ومن ثم لفّت به مفتاحين ثقيلين من الحديد يفتحان باب الدخول إلى المنزل. الآن، هناك في الأسفل تحركت القامة المنفردة، التي وحدها لم يبد أنّ الانجراف طالها بينما هي تنجرف بل حول ولا قوة، تحركت من موقعها تحت المسلّة المصرية وانحنت لتلتقط اللفافة البيضاء من على الرصيف. رفعت بصرها، أي القامة، إليها، مع هزّة واحدة سريعة من الرأس، حتّى في تلك اللحظة كانت تتحرّك لتغيب عن النظر، ليس بعيداً عنها بل نحوها. إنّها تبتعد، كلا، بل ابتعدت لتوّها تحت الإفريز الذي يعلو الباب المؤدّي إلى المنزل، وبعد قليل من الآن، نعم، بعد بضع دقائق من الآن، سوف ينكسر الخواء، سيلجُ الفراغ الشنيعَ شيء ما.

رفعت السيدة ستون بصرها نحو السماء التي بدا لها أنّها سكتت فجأةً. فابتسمت لنفسها، وهمست "انظري! لقد أوقفت الانجراف!".